محمد الجمل

قراءة في دفتر الأحوال

رواية

الكتاب: قراءة فى دفتر الأحوال (رواية)

الكاتب: محمد الجمل

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥



فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الجمل، محمد

قراءة فى دفتر الأحوال / محمد الجمل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولى: ٨- ١١٤- ٤٤٦- ٩٧٧ – ٩٧٨

١٣٩ ص، ١٨ سم

أ – العنوان　　　　رقم الإيداع: ١٠١٢٣ / ٢٠٠٨

قراءة في دفتر الأحوال





١- وجيه المسيرى

هو من أفراد دفعتي بالكلية الحربية، ومع ذلك لم ألتق به وأتعرف عليه إلا بعد التخرج، عندما عملنا سوياً في الكتيبة "١٥" بالإسكندرية. لم أعرف له في البداية صفات خاصة تقربني منه. هادئ الطبع، لا يتكلم كثيراً، لا يثير المتاعب. اكتشفت مع الوقت أنه من عشاق صوت وألحان محمد عبد الوهاب إلى حد الجنون. كنت أشاركه هذا العشق بنفس ذاك الجنون الغني. هكذا جمعنا شيء، حولنا إلى أصدقاء. كثيراً ما دعاني إلى بيته ليسمعني أسطوانات محمد عبد الوهاب على جهاز "جارامافون" كلاسيكي قديم، أعترف لي بأنه أثمن وأغلي ما يملكه في حياته. كنا نحتفل سوياً بميلاد كل أغنية جديدة لمحمد عبد الوهاب. يشرح لي بلا ملل وبعشق الهاوي مواطن الجمال في اللحن والموسيقى والأداء.

انتقلنا مع وحدتنا للخدمة بالعريش، ومنها إلى رفح. سمعنا معاً قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦. تحدثت معه بفرحة وانفعال جارف عن دوافع القرار واحتمالاته. بدا متحفظاً في انفعالاته. لم يكن مشغولاً بأمور السياسة، بحكم اهتماماته وضرورات الانضباط العسكري، وعدم التورط فيما لا دخل له فيه. لم يزد على القول بتحفظ: "هذا الزعيم غير عادي، وأخشى أن يكون مصيره هو نفس مصير عرابي". حدث العدوان الثلاثي في سبتمبر ١٩٥٦.

صدر قرار الانسحاب من سيناء. قطعنا سوياً مشوار الانسحاب إلى الضفة الغربية لقناة السويس، عبر جبال ووديان سيناء، في رحلة قاسية مميتة، شربنا خلالها بولنا وأكلنا الحشائش، وقرأنا أكثر من فاتحة على أكوام من الجثث، واختفينا من رشاشات الطائرات تحت سطح مياه البحر. لم نصدق أن تكتب لنا الحياة في نهاية هذا الارتداد المرعب. قال لي ونحن نعبر قناة السويس في قارب صيد: "ألم أقل لك أن مصير هذا الزعيم هو نفس مصير عرابي؟!". لم أكن متفقاً معه في هذا الرأي. اتهمني بالسذاجة والجهل والحماس الطائش. قلت له بعد تحقيق النصر السياسي في هذه المعركة: "نحن أمام زعيم لا يشق له غبار، وباعتراف العالم". عاد يقول لي بلهجة رمزية متحفظة: "إن أجمل ما في هذه المعركة هو أغاني عبد الوهاب الوطنية".

استقرت وحدتنا في القاهرة بعد إعادة تشكيلها. استأجرت أنا ووجيه، واثنان من دفعتنا (أنور وفؤاد) شقة بحي "الروضة"، لنحقق الحرية والانطلاق، بعد انتهاء أوقات العمل الرسمية بالوحدة. كنا نستمتع بشبابنا من خلال اصطحاب الفتيات. لم يكن وجيه يشاركنا في هذه المتعة. سألته ذات مرة كيف يتحكم في نزعته الجنسية إلى هذا الحد.. كيف يتقبل هذا الحرمان في سن العشرين؟. قال لي باقتضاب لا يسمح بإعادة السؤال:" إني أخاف الله.. هذا كل ما في

الأمر". مرت شهور قليلة قبل أن يفاجئني "وجيه" بأنه عقد قرانه على ابنة خالته "ليلي". دعانا نحن أفراد الدفعة إلى حفل الزفاف. بدا سعيداً بغير حدود. قلت له بظرف وفي نهاية الحفل: "لقد فقد عُذاب الدفعة واحداً". أردت أن أطمئن على حاله بعد زواجه بشهور، فقال لي بلهجة تقريرية: "عندي مشكلتان.. ليلي لا تحب محمد عبد الوهاب.. ولا تحب أن أضاجعها بشكل يومي.. إنني أعتمد على الزمن". عاد يقول لي بعد بضعة شهور: "ليلي حامل.. هي تحب جنينها أكثر من حبها للمضاجعة اليومية".

مرت سنوات قبل أن نفترق. انتقل وجيه إلى وحدة أخرى. ظللت أخدم بالقاهرة حتى صدر قرار إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية وإعلان حالة التعبئة. انتقلت إلى وحدة "احتياطي" تم دفعها إلى العريش في لواري شركة "قطاع عام"، وجنودها يرتدون الجلاليب والأسلحة مخزنة في صناديق. التقيت مرة أخري "بوجيه المسيري"، الذي كان يخدم في وحدة مجاورة لوحدتي. بدا أننا مقبلون على معركة أخري مع إسرائيل بعد إغلاق الخليج. حل الخامس من يونيو ١٩٦٧. نشبت الحرب التي انتهت بهزيمة ساحقة للجيش المصري، التي سميت بعد ذلك بالنكسة، وصدر قرار انسحاب عشوائي. وجدت نفسي أنا ووجيه نقطع مشوار انسحاب جديد، سيراً على الأقدام. نقطعه هذه المرة من العريش إلى

الضفة الغربية للقناة. قال لي وجيه ونحن نركب عربة قطاع عام في طريقنا إلى القاهرة بعد أن دميت أقدامنا: "ألم أقل لك أن مصير هذا الزعيم هو نفس مصير عرابي؟! طلبت منه أن نتذكر الإنجازات الكبري التي حدثت، ولا نتوقف عند هزيمة عسكرية مؤقتة. لم نكن على استعداد للتورط في مزيد من التعليقات، تضعنا تحت طائلة العقاب. الجندية لها ضوابطها ومحاذيرها.

جمعني "بوجيه المسيري" أكثر من تلقاء على مشارف الضفة الغربية للقناة أثناء حرب الاستنزاف خلال عام ١٩٦٨. كنت متمرّساً مع وحدتي غرب مدينة السويس، وكان وجيه يعمل بوحدة شرطة عسكرية في موقع أمامي بالجبهة. ذكرني بأغنية "عبد الوهاب" بعد النكسة التي تشحذ الهمم بغير حدود: "طول ما أملي معايا وفي أيدي سلاح، حافضل أجاهد وأمضي وأقول حي على الفلاح". حدثني عن نكسة شخصية ألمت به، وارتبطت بنكسة يونيو ٦٧. طلبت منه زوجته الانفصال بعد أن أنجبت منه ولدين. لم تعد تحتمل المضاجعة اليومية لأكثر من مرة، حتى لو كانت أثناء إجازات ميدانية. لم يجد مفراً من قبول الانفصال. قال لي إن الجنس يمثل بالنسبة له مصدراً لطاقة روحية هائلة. لم أفهم ما يقصده من هذا

القول، وعندما طلبت مزيداً من الإيضاح، أشفق على عجزي عن الفهم.

لم يمض عام حتى أخبرني أنه تزوج من فتاه تصغره بخمسة عشر عاماً، وإنه يفوقها نشاطاً وحيوية، وهي لا تشكو من إلحاحه الجنسي المتكرر، مثل زوجته الأولى. هكذا أصبح له بيتان، بيت في الإسكندرية لرعاية أبنائه، وبيت في القاهرة ليستمتع بنشاطه الذي يصل إلى حد الهوس، هوس لا يقل عن هوسه بألحان محمد عبد الوهاب. أنجب من زوجته الثانية ولداً وبنتاً. لم أجرؤ على سؤاله كيف يدبر الدخل الذي يمكنه من الصرف على أربعة أبناء وزوجة ومطالب زوجة مطلقة. انقطعت صلتي به لسنوات طويلة. لم أعد أعرف شيئاً عن أخباره. كناقد أحلنا إلى التقاعد، وأصبحنا نعيش في عصر انفتاح وحريات مزعومة وفساد لا حدود له. لم أعد ألتقي بزملائي وأصدقائي المتقاعدين إلا في المستشفي العسكري، حيث يتداوي كل واحد منا من ثلاثة أو أربعة أمراض، ونسينا ما كان من أمر مشروع يوليو ومشروع نصر أكتوبر ومشروع اللا مشروع. وفي يوم من بدايات الألفية الثالثة وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام "وجيه المسيري" في عيادة المستشفي العسكري العام بالإسكندرية. تبادلنا حكايات ما جري وكان أثناء فترة انقطاعنا. علمت منه أن أحد أبنائه أصبح ضابط جيش، وآخر ضابط شرطة، وآخر وكيل نيابة، وزوّج

ابنته من محاسب، ولا أعرف كيف تمكن من تحقيق هذه الإنجازات الأبوية. داخلني شك بأنه أصبح انفتاحياً لا يشق له غبار. انتابته لحظة حزن عميق وهو يصارحني بأنه يعاني من التهاب حاد في "البروستاتا"، وأنه يخشى أن يتحول الالتهاب إلى مرض خبيث، وتنتهي حياته نهاية مأساوية كما يظن ويعتقد. قال لي وهو يخفي دمعة حارة ساخنة: "هذه أكبر كارثة في حياتي". سألته إن كان مازال يمارس الجنس. رمقني بنظرة عاتبة مؤنبة. قال لي بغضب واحتجاج: "كيف خطر ببالك أن أتوقف عن مواصلة الحياة.. ما معنى حياة بلا جنس؟.. لم أستشهد في حروب الثورة.. أنا على استعداد للاستشهاد فوق فراش الزوجية". ظننت أنه لم يعد هناك ما يمكن أن أقوله أو أسمعه. ولكنه سألني إن كنت أصلي وأصوم وأخشى غضب الله. قلت له إنني أجتهد قدر ما أستطيع. رمقني بنظرة محذرة وقد جحظت عيناه. صوّب سبابته نحوي وكأنها ماسورة مسدس. قال لي وكأنه ينصح طفلاً عاقاً وعاصياً: "احذر غضب الله... أعمل لآخرتك كأنك تموت غداَ.. إياك من الجهل والغرور.. أنا أري الحياة الأخري مثلما أراك أمامي الآن.. أعتقد أن التهاب "البروستاتا" عندي كان بسبب غضب من الله علي.. لابد أنني ارتكبت ذنبا.. إنني أطلب العفو والغفران بالصلاة ليل نهار". ودعت "وجيه المسيري" وأنا أشفق عليه. كنت أعاني من التهاب "البروستاتا"، ومع ذلك لم أشعر أنني ارتكبت ذنباً أعاقب عليه.

٢- بدرية شاكر

كنت أراها في المبني القديم لدار أخبار اليوم، وهي تركب المصعد، وهي تتحدث مع زميل أو زميلة لها في أحد الممرات. لم أكن قد تعرفت عليها بعد. أحسست بقرون استشعاري أن هذه الأنثي هي من كنت أبحث عنها طوال حياتي ولم أجدها. مظهرها وملامح وجهها وطريقة حديثها تشدني إليها بلا فرامل. امرأة قوية واثقة من نفسها، يتفجر جسمها الممتلئ بأنوثة متفجرة، لا تكشف عنها بوضوح، ولا يكتشفها إلا خبير يمكنون المرأة. نظرات ثاقبة تخترق من تتعامل معه، دونما فجاجة أو اقتحام مستفز. تقرأ أعماق الآخر، فتتعامل معه بحرارة وصدق وموضوعية في آن واحد. تشمل الجميع بروح المحبة والبساطة والاحترام.

أنا بطبعي أحب المرأة القوية، المرأة الندّ، رأيت فيها نموذجا للندّية في تعاملها مع الرجال. "بدرية" تتمتع بجمال خاص، شديد الخصوصية، ليس لها شعر أصفر، ولا بشرة ناصعة البياض، ولا رقبة طويلة، ولا جسم ممشوق، ولا خصر نحيل، تكشف عن أنوثتها بضحكة "مجلجلة" لا تخلو من بعض الخشونة. هي تجمع بين نقيضين.. عقل واع متفتح.. وأنوثة تبحث عمن ينجح في اكتشافها.

أخذت أجمع عنها ما يمكنني جمعه من معلومات، ولو على سبيل الفضول، ولأنها المشرفة على الصفحة الأدبية التي أنشر فيها

أعمالي القصصية، كنت أتعامل مع "الصفحة الأدبية" من خلال صديق صحفي شاب، يعمل بالصفحة، ولم ألتق بها في البداية. بدت لي شخصية مهيبة، لم تواتنَ الشجاعة الكافية على الاقتراب منها. أخذت أتحرى أخبارها من الصديق الصحفي. فهمت منه أنها كانت طالبة "ثورية" بكلية الحقوق "جامعة الإسكندرية"، وإنها كانت تتزعم المظاهرات في المناسبات الوطنية، ويتم حملها فوق أعناق الطلبة الرجال، وكثيراً ما قبض عليها، وجري التحقيق معها في أقسام الشرطة والنيابات، وكانت رئيس تحرير لمجلة "الخلاص" بكلية الحقوق التي صودرت أكثر من مرة بسبب مقالاتها الجريئة الجارحة. تخرجت من الكلية وانتقلت وحدها إلى القاهرة، لتعيش مع خالتها، وتعمل في مجال الصحافة. وسرعان ما اكتشف الأستاذ "رئيس التحرير" موهبتها الصحفية المتألقة، فتبناها ورعاها حتى أصبحت صحفية مرموقة، بل أقرب الصحفيات الشابات إلى عقله وقلبه، حتى شاعت حولهما أقاويل كثيرة، وصلت إلى حد المبالغات والتجاوزات.

وفي يوم لا أنساه، فوجئت بالأستاذ "عبد الستار المواردي" (المشرف على الصفحات الثقافية والفنية) يطلب مني أن أقابل الأستاذة "بدرية شاكر" في مكتبها، فهي معجبة بالقصص التي أنشرها في صفحتها الأدبية، وتريد أن تتعرف على هذا الأديب الشاب الواعد. أدهشتني هذه الصدفة إلى حد الذهول ودوار الرأس. هل

هذه صدفة أم موعد مع القدر؟!. لم أكن مهيئا لتحمل هذا اللقاء. كيف أواجه هيبة ومهابة هذه المرأة النّد؟ وراءها تاريخ صحفي وفني طويل، وأنا أديب شاب مبتدئ في الخامسة والأربعين من العمر. أنا أحب المرأة "الند"، ولكنني لست واثقاً من قدرتي على التعامل معها. قررت أن أقاوم ارتباكي وألا أضيع الفرصة. دخلت عليها في مكتبها. استقبلتني بترحاب مدهش لا يخلو من الدهشة. قصصي تقول إنني شاب في مقتبل العمر، وهي تراقب باستغراب شعري الأبيض الذي يتخلل شعري الأسود. قدمت لها قصة جديدة. قرأتها بعناية. وضعتها أمامها. أخذت تتأملني كأنها تعرفني منذ سنين. قالت بجرأة مذهلة: "كيف حالك أيها الأديب المتصابي؟". لم أجد ما أقوله وأرد به على الفور. بدوت كطفل يحبو في محراب العشق. فتاة أحلامي أمامي بعد غياب دام عشرين عاماً على الأقل. قلت بارتباك العاشق الخجول: "علمت أنك معجبة بقصصي". قالت بجرأة وثقة: هل تقبل أن يتحول هذا الإعجاب إلى صداقة؟". أي نوع من الصداقة يا "بدرية"؟ هل أنت جادة فيما تقولين؟ هل فضحت أعماقي واخترقت حجب الغيب؟ أنا على استعداد لعقد قران الصداقة دون قيد أو شرط. لفحتني بنظرة جامحة تعدت حدود الود والصداقة. حدث عناق بين براءتي وفطرتي البادية في قصصي وبين امرأة تحن إلى زمن البراءة والتلقائية.

هكذا أخذنا نلتقي بانتظام، أزودها في مكتبها، أدعوها إلى غداء في نادي التجديف. تدعوني إلى غداء في نادي الصيد، بصحبة صديقاتها الممثلات والنقاد والفنيين. هي تجمع بين النشاط الصحفي والنقد السينمائي، تملك حاسة فنية مرهفة. انتظرت حتى يحين الوقت المناسب، لأعرف ما يمكن معرفته عن حياتها الخاصة. حان الوقت. دعتني إلى غداء في منزلها. استقبلني زوجها بترحاب واضح. بدوت محرجاً لا أعرف كيف أتصرف. نجح في إزالة حرجي وتبديد هواجسي. أخذ يحدثني عن مهنته كمحام متخصص في القضايا المدنية، وكيف يقضي نهاره في المحاكم، ويستغرق ليله في دراسة الادعاءات وكتابة المذكرات والحيثيات، ويعاون زوجته في الطهي وإعداد الموائد، وتلبية حاجات ابنته. أدركت أنه يمنح زوجته حريات واسعة، ولا يراجعها في أي تصرف أو سلوك، ولا يمل من الحديث عن إعجابه بها ورغبته في إرضائها بلا أي تحفظات. أدركت مع الوقت طبيعة العلاقة بينهما.. زوجة قوية متفتحة، وزوج بسيط متواضع، تجمعه بزوجته عاطفة أمومة، أكثر منها عاطفة زوجية. لاحظت أنها ترمقه من آن لآخر بنظرات لوم واحتجاج، خالية من الشعور بالندم. بدت لي بأنها قبلت هذه الزيجة بحسابات عملية مدروسة، "فبدرية" ليس المرأة التي يمكن أن تقهر، أو يفرض عليها أحد مالا تقبله.

هكـذا جمعتنـي ببدريـة علاقـة محبـة غريبـة يكتنفهـا الغمـوض. لسنا أزواجاً ولكننا أحباب، لا يجمعنا سرير محبة. هي تشعر ناحيتي بعاطفة خاصـة، تفتقـدها في علاقتها بزوجها. أخذت تشكو لي من بعض تصرفاته. قلت لها ذات مرة لأخفف من ضيقها. – هو رجل وسيم، ودود، مهذب، ملتزم.. يحبك بجنون.

قالت بعقلانية متفهمة.

– هو يريد أما ولا يريد زوجة.

– أظن أنه لا يفرض قيوداً أو شروطاً في تعامله معك.. هذه ميزة لا تتوفر في زوج شرقي.

– هذه هي الميزة الوحيدة التي جعلتني أقبله زوجاً...

– هي إذن حرية بلا تنازلات.

– حرية لها ضريبتها وخالية من أية تنازلات.. طبعاً هناك فرق بين الضريبة والتنازل. قلت لها بتلميح، لا يغيب مغزاه عن فطنتها.

– أتصور أنك كنت قادرة على اختيار زوج يتصف بالندية والتكافؤ.

– كانت هناك عروض لم تكلل بالنجاح.. الزوج المتكافئ يطلب تنازلات.

-كانت لك إذن حساباتك في تجربة الزواج.

- لم أجد مشكلة في قبول زوج وأبناء دون قيود أو شروط.. صورة اجتماعية لها مزاياها، ولها أيضاً ضرائبها.. الحرية الحقيقية تعلمك كيف تختار حتى قيودك.

شعرت بأنني فهمت شخصية "بدرية شاكر" بوضوح. لم يعد هناك لبس أو غموض. هي تعرف ما تريد ولا تخفي شيئاً. تعلمت أيضاً منها الكثير، فهي صاحبة خبرة طويلة وعميقة في مجالات الحياة. لا أعرف كيف لم يخطر على بالي، ولم أنشغل لحظة في عبور الخط الأحمر، فأمسك بيدها بنية غير بريئة، أو أضع ذراعي على كتفها، وأضمها إلى صدري ولو بحسن نية، أو أجلس بجوارها في مكان ما أو ألصق جسدي بجسدها. هل هو مانع أخلاقي أم حاجز نفسي لا أعرف أسبابه ودوافعه. أدركت في لحظة تنبه، وفي لقاء منفرد على شاطئ نيل "الزمالك"، أنها تعي وجود هذا الحاجز، ولا تمانع أن تصيبني لحظة تهور جامحة لكسر هذا الحاجز. فهمت من نظراتها أنها تراقب ذلك الطفل البريء الخائب في داخلي، وتنتظر بصبر لحظة انكساره.

وفي لقاء آخر على شاطئ بحر "سان استفانو"، سألتني بمودة مستفهمة: "حدثتك عن زوجي.. لم لا تحدثني عن زوجتك". انطلقت في الحديث كأنني كنت

انتظر السؤال: "زوجة طيبة، ودودة، ملتزمة بواجباتها الزوجية التقليدية، شديدة التدين، ليس عندها الكثير مما تقول، تجاربها محدودة، لا تعبر عن مشاعرها بروح امرأة متحررة، لا أستطيع أن أعبر عن مشاعري نحوها بلا ضوابط وقيود، أعبر عن مشاعري في قصصي، هي شريكة حياة خالية من جنون المشاعر وتهور الأحاسيس، تتمتع بهدوء مستفز يثير الغيظ، ليست لها صفات فتاة أحلامي ومع ذلك وقعت عقد الزواج. كنت أحلم بامرأة قوية تستفز عقلي ومشاعري، ربما لم أكن الرجل المناسب لامرأة قوية ناضجة، تحول حياتي إلى بركان من الصخب والضجيج. لم تقبلني أي امرأة ناضجة متفجرة المشاعر، ولم أقبل أي امرأة تتصف بالبلادة والخمول. من أريدها لا تريدني، ومن تريدني لا أريدها. قبلت في النهاية زوجة تقليدية، ودفنت نفسي في كتابة القصص.

لم أتصور أن أكون صريحاً إلى هذا الحد. قدمت لأول مرة أول قراءة صحيحة لزوجتي. ارتاحت "بدرية" لحديثي. غمرتني بنظرة حب ارتجت لها أعماقي. لم أملك شجاعة مبادلتها نفس النظرة. قالت لي بشجاعة المحبة المتحررة: "لو أننا كنا في مكان مغلق لفعلت معك مالا تتوقعه. ذكرتني بزمن المراهقة. مراهقان يستعيدان الذكريات في أربعينيات العمر.

استمرت العلاقة دونما احتكاك، دون أن تتلامس الشفاه وتلتحم الأجساد، تلقيت منها اتصالاً ذات يوم. أخبرتني أنها تقضي عطلة نهاية الأسبوع في شقتها بالساحل الشمالي في شاطيء "مراقيا"، وهي وحدها ويسعدها أن تراني. لم أتردد لحظة. قدت سيارتي بجنون. تعدي عداد السرعة رقم "١٢٠". الشقة بسيطة ومفروشة بذوق راق، وتطل على البحر. استقبلتني بفستان يجمع بين الوقار ولا يخفي المفاتن. أغرتني بتقبيلها فخانتني شجاعتي. الموقف لا يحتمل الشك والتردد، برغم المانع الاجتماعي والأخلاقي. الجبان في داخلي لا يريد أن يغفو. دعوتها للجلوس في الشرفة. سألتني إن كنت أريد أن أشرب زجاجة "بيرة". قلت لها في لحظة شجاعة: "أخشي أن تنهار مقاومتي". استغرقت في ضحك صاخب ثم قالت: "لم لا تستلم لمشاعرك؟.. كيف تكتب وأنت سجين إرادة مخنوقة؟. كنت أكره نفسي وأنا أدعوها لتأمل غروب الشمس. المرأة قوية وآسرة، وهي تريدني هذه المرة، وأنا عاجز عن الاستجابة. قدمت لي عصير الليمون وبعض الحلويات وهي تشملني بابتسامة عارفة: "هذا ما يمكن أن أقدمه لرجل مكبوت لا يعرف كيف يفرج عن كبته". أخذت أحدثها عن أي شيء إلا ما أريد أن أقوله بصدق وصراحة".

ظلت تتحكم في دهشتها وهي تسمعني بصبر، وأنا أحدثها عن تجربتي في حروب ٥٦، ٦٧، ٧٣، وعن تجربتي في الكتابة الأدبية، ثم قالت لي بلا مقدمات.

- واضح أنك تحب زوجتك.

- هي شراكة حياة لا أكثر ولا أقل.

- ربما لا تريد أن تخونها.

- لم أشغل نفسي بهذه الفكرة.

سألتني وهي تخفي حيرتها ودهشتها

- كيف سنقضي وقتنا الآن؟

- نذهب إلى سينما "مترو"، ثم نتناول العشاء.

ذهبنا إلى سينما "مترو". دعوتها لتناول العشاء في محل "سانت لوتشيا" تناقشنا طويلاً في مغزي الفيلم الذي شاهدناه. كان تحليلها لشكل ومضمون الفيلم أكثر من رائع باعتبارها تعمل بالنقد الفني. أوصلتها إلى شقتها في منتصف الليل. ودعتها عند باب الشقة دونما قبلة أو حضن دافئ. اعتبرت أننا قضينا إجازة رائعة ووقتاً ممتعاً.

استمرت العلاقة دونما غضب أو اختلاف. علاقة زمالة وصداقة بريئة. كنت في زيارة للقاهرة، عندما اتصلت بها في منزلها، وقلت لها إنني أريد أن أراها، لأعرض عليها مشروع رواية، وأناقشها في بعض جوانب محيرة في النص. دعتني للحضور فوراً إلى المنزل. ذهبت إليها وأنا في غاية الفرح. فتحت لي الباب وهي ترتدي قميص نوم أبيض، يكشف عن مفاتنها بلا مواربة. ارتبكت قليلاً وهي تدعوني للجلوس بجوارها على أريكة الصالون.. وضعت على المنضدة زجاجتي "بيرة". لم أتردد في الشرب. دخلت في حالة انسجام. وضعت ذراعها على كتفي. ضمتني برقة محسوبة. أيقنت أن زوجها غائب عن القاهرة، وإنها قد اتخذت قرارها ولا تنوي التراجع. أخرجت الرواية من حافظتي. أخذت أقلب أوراقها وأحدثها عن المضامين. تحكمت في إحباطها. ابتعدت عني قليلاً. أخذت تناقشني فيما كتبت ببرود شديد. تراجع معي ما كتبته عن مفهوم الحب ومفهوم الخيانة، مفهوم الحرية ومفهوم الالتزام، مفهوم التمرد والاستسلام، مفهوم الانشغال بالمصير الإنساني ومفهوم التعبير عن الذات. انتهي الحديث فاستأذنت في الانصراف. دهمتني بسؤال مباشر وصريح.

- هل تعاني من ضعف جنسي؟

أجبت بلا تردد.

– إطلاقاً.. إنني أعاني الآن من هياج جنسي.

– ما هي المشكلة إذن؟!

– لا أعرف.. أتمني أن تعثري عليها. ربما لا تثق في نفسك.

– ربما تكونين أقوي من اللازم، وأعجز عن اقتحامك.

فكرت قليلاً وعادت تقول بوعي

– أنت إذن لا تقوي على امرأة قوية، ولا تقبل امرأة ضعيفة.. ربما تعاني من اختناق في الحرية.. من شلل في الإرادة. من قهر في الطفولة.. من شعور مكبوت لم تنجح في الإفراج عنه.

نهضت وأنا أعاني من حالة قهر وإحباط، من شلل في التفكير والمشاعر. قلت وأنا أحبس دموعاً عصية على النزول: "دعيني أفكر فيما قلت لي". أغلقت الباب ورائي بعنف مروع، ارتجت له أرجاء العمارة، وكأنه صفعة على وجهي. لم أنس مدي حياتي صفعة الباب، التي تحولت إلى صفعة على وجهي.

مرت الأيام والشهور والسنون. لم أعد أراها أو ألتقي بها. لم أقو على تجاهل خجلي الفظيع وشعوري بالضعف أمامها. تذكرت قولها لي في آخر لقاء: "أنا قبلت الرجل الضعيف، ولم أفقد حريتي.. "أنت قبلت المرأة الضعيفة، ولم تكن تعرف معني الحرية". لم أملك شجاعة رؤيتها ومواجهتها مرة أخرى.

كانت لحظة مشهودة عندما رأيتها في حديث تليفزيوني، وهي تتحدث عن إصابتها بمرض خبيث، نجحت في التغلب عليه بإرادتها، قبل أن تتغلب عليه بالجراحة. سمعتها تقول لمحاورها: "تذكر أنني امرأة قوية، أملك إرادة المقاومة.. أسعد بحياتي بعد المرض، مثلما كنت أسعد بها قبل المرض".

حرصت على لقائها بأي ثمن. قررت زيارتها في منزلها حتى لو صفعت الباب في وجهي مرة أخري. والتقينا. استقبلتني بهدوئها المعتاد ورباطة جأشها. بدت تعيش حياتها كأنها لم تصب بهذا المرض الخبيث. سألتني عن آخر ما كتبت. لم أشأ أن أطيل عليها. عاملتني كزميل وصديق، ولم تكن ترتدي قميص نومها. بدت الزيارة كزيارة واجب ومجاملة. أوشكت الزيارة على نهايتها فقلت لها بمنتهي الصدق والصراحة:

– أنا الآن على استعداد للتعامل مع امرأة قوية.. على استعداد لأخذك في حضني. ابتسمت بتحفظ وقالت بحس يقظ.

– ربما تصورت أنني أصبحت امرأة ضعيفة. – ربما أكون قد استعدت حريتي على يديك.

عادت تقول وهي تربت على كتفي:

– أنت استعدت حريتك في الخمسين من العمر.. وأنا وصت إلى سن الحكمة.

٣- صادق سلماوى

تعرفت عليه في شقة صديقنا المشترك "توفيق مختار"، باعتباره عضوا دائماً ومثابراً في صالون "توفيق مختار" الثقافي، الذي يجتمع بصفة يومية. بدا لي "صادق سلماوي" شخصية ملفتة ومثيرة للاهتمام. فهو شديد السمنة يتعدي وزنه أكثر من مائة كيلو جرام، يدخن بشراهة رغم أنه مازال طالباً بكلية الآداب "قسم فلسفة"، ولا أعرف من أين يدبر ثمن السجائر. وقد تتلمذ على يدي "توفيق مختار" بمدرسة العباسية. وهو شديد الحماس والانفعال عندما يتكلم، ومع ذلك لا يقول شيئا يمكن الاحتفاظ به في الذاكرة. ولا يكف عن التذكير بأنه "شيوعي" معجب بالتجربة الصينية. ويأكل بشراهة حتى أنه يبتلع الرغيف في أربع قضمات. وهو ملول ومشتت التفكير، حتى أنه لا يستمع لمحدثه أكثر من دقيقة أو دقيقتين على أكثر تقدير. وكثيراً ما ينصرف عن المجلس بعد أن يصيبه توتر مفاجئ، ولا مانع من أن يعود إلى الاجتماع بعد ساعة أو ساعتين. ويمارس الجنس مع فتيات الهوي المتسكعات على رصيف الكورنيش بالإسكندرية في إحدي شقق الطلبة المغتربين. وهو شديد الظرف والمرح، وصاحب قفشة ونكتة، وعندما يضحك يهتز بدنه حتى لكأنه يوشك على الانفجار. لم أفهم بوضوح كيف يجمع "سلماوي" بين الشره في الطعام وشهوة الجنس وإدمان التدخين والنوم الطويل وبين اعتناق الشيوعية.

سألته في لقاء خاص في مقهي شعبي بسيط، كان يتردد عليه، عن مفهومه للشيوعية. قال في في جمل مقتضبة: "حكومة عالمية تضمن إشباع حاجات البشر.. إنهاء الحروب والصراعات الوطنية والقومية والدينية.. القضاء على القوي الرأسمالية إلى غير رجعة.. تبني ثقافة واحدة غير قابلة للمنافسة". سألته هل قرأ كتب كارل ماركس وانجلز ولينين. أجاب بأنه ليس في حاجة لقراءتها. كنا في فترة الخمسينات من القرن العشرين. حيث انتشر الحديث المعلن عن الاشتراكيين بعد فترة ثورة يوليو ٥٢. سألته عن رأيه في "عبد الناصر"، قال إنه البطل الذي يطبق الاشتراكية بالنيابة عنا. وعندما سألته عن دوره في تطبيق الاشتراكية، طلب مني أن أشتري له سندوتش "كبدة" وعلبة سجائر "هوليود"، ولا مانع من اصطياد فتاة هوى، يضاجعها في "خرابة"، كان سلماوي ينتمي لأسرة شديدة الفقر والعوز، تعيش على الفول والطعمية والعدس، والرغيف المدعم، واستفاد من مجانية التعليم، وعمل مدرساً للفلسفة والاجتماع وعلم النفس بمجرد تخرجه. هكذا تحسنت أحواله المادية. أصبح صاحب مرتب، ولكنه عاجز عن تدبير تكاليف الزواج.

انطوت حياته على مجموعة من المفارقات. مشغول تماماً بإشباع حاجاته الغريزية يتخذ من الشيوعية شعاراً براقاً، يتزين به أمام أشباه المثقفين المحيطين به. يبحث عن المرأة بأقل التكاليف

ودونما أي ارتباط. فوجئت به ذات يوم يحدثني عن أخيه الأكبر، الغائب عن مصر منذ سنين. علمت منه أنه كان عضواً ناشطاً في جماعة "الإخوان المسلمين"، وكاد أن يقبض عليه في حملة اعتقالات عام ١٩٥٤ ضد "الإخوان"، لولا أن هرب إلى السعودية، ثم نجح في السفر إلى "أمريكا" حيث يعيش هناك الآن بمنتهي الحرية والرخاء، وأغلب الظن أنه قد نسي تعاليم "حسن البنا"، أو أنه ينتظر "ساعة صفر" لم يحن وقتها حتى الآن. سألته بظرف: "ألا تفكر في اللجوء إلى الصين الشعبية التي تؤمن بشيوعتها؟".

استغرق في ضحك صاخب. لم يتوقف كرشه عن الاهتزاز. أعجبته القفشة. قال لي وهو يجفف دموع الضحك: "الصين تعول شعبها بالكاد.. ليس عندهم كبدة وكباب وكفتة وسجاير وفتيات هوى".

استمرت علاقتي به دون خصم أو إضافة في المصالح والأفكار، ولو أنني كنت أشعر باسترخاء عجيب وأنا ألتقي به، حتى أنني كنت أفتقده إذا غاب عن مجالسنا. فوجئت بأنه يعيش قصة حب مع زميلة بالكلية "ملك إبراهيم"، واستمرت هذه العلاقة بعد تخرجه. لم تكن ملك فتاة جميلة، سمراء عادية الملامح، أنثي تقليدية محافظة ومنضبطة، وهي من أسرة ثرية، تعيش في فيلا موروثة

فـي "سـيدي بشـر"، وتحظـي بـبعض الأمـلاك، وتتصـف "ملـك" بسلوكيات بورتوكولية راقية.

حاول "سلماوي" أن يتكيف، قدر ما استطاع، مع فارق الغني والسلوكيات الراقية، بينه وبين "ملك". بدا واضحاً أن العلاقة تتجه نحو الزواج، مثلما وضح أن "سلماوي" يحلم بالخروج من دائرة الفقر من خلال هذه الزيجة. ثم اكتشف مع الوقت أن استمرار العلاقة مع هذه الفوارق شبه مستحيلة، بعد أن أخذت "ملك" تشعر بالحرج من بعض تصرفاته وسلوكياته. هكذا قرر الانسحاب والاختفاء من حياة "ملك"، وسمع أنها تألمت كثيراً بسبب انسحابه. سألته عن سبب هذا الانفكاك، فقال لي بلهجة تجمع بين الجد والمزاح: "قانون الصراع الطبقي لم يسمح باستمرار العلاقة". تحكمت بصعوبة في رغبتي في الضحك. عاد يؤكد لي بجدية غامضة: "لم أسمح لنفسي بخيانة ماركسيتي". سألته إن كان جاداً فيما يقول، أم أنه العجز الاجتماعي. أنهي المقابلة بغضب، بعد أن أخذ ثلاث سجائر من علبتي، وتركني أدفع حساب المقهى.

لم نعد نلتقي بانتظام. شغلتنا حوادث وطنية وقومية كثيرة.. حروب مع إسرائيل.. الوحدة مع سوريا.. حرب اليمن.. نكسة يونيو ٦٧.. موت عبد الناصر.. حرب أكتوبر ٧٣.. زيارة السادات للقدس.. معاهدة كامب ديفيد ٧٩.. حادث المنصة.. بداية عصر

مبارك. التقيت "بسلماوي" بعد انقطاع طويل في مجلسه اليومي في مقهي "كامب شيزار". أصبح زعيم مجلس يومي بالمقهي الشهير، يضم مجموعة من أصدقائه المدرسين من أشباه المثقفين.

علمت أنه تزوج زيجة تقليدية متواضعة، وأنجب ولداً وبنتين، وأصبح أحد كبار "مافيا" الدروس الخصوصية، وحقق ثروة لا بأس بها، أودعها في إحدي شركات توظيف الأموال الإسلامية، ليحصل على فائدة سنوية تقارب ٢٥%، ثم أعلنت الشركة إفلاسها وضاعت ثورته بضربة قدر مأساوية، حكي لي كيف أن أخاه "محمد" الإخواني القديم الذي يعيش في أمريكا دعاه لزيارة أمريكا، ورأي هناك مالاعين رأت ولا أذن سمعت، وقد كلفت الزيارة أخوه بضعة آلاف من الدولارات. قلت له على سبيل القفشة التي تناسب حبكة الأحداث: "تخليت إذن عن ماركسيتك في نهاية المطاف".

رد بجدية مصطنعة كعادته: "دفعت ثمناً غالياً.. ومع ذلك ما زال "عبد الناصر" مثلي الأعلى". سألته بحس فكاهي عن أخبار الصين الشعبية، فقال لي بحماس مجهول المصدر: "واصلت الصين نهضتها الاشتراكية، وأنا واصلت الهبوط إلى الحضيض".

حرصت على التمسك بالجانب الفكاهي المأساوي في شخصية "صادق سلماوي" من خلال الانضمام إلى مجلسه الترفيهي في مقهي "كامب شيزار"، حيث يردد الحديث عن ذكري ماض

جميل وحاضر ملتبس أليم. باح لي في لقاء خاص كيف انهارت تجربته الأسرية، مثلما انهار حلمه في تحقيق الاشتراكية. اعترف لي بأن زوجته وابنته الصغري تتآمران عليه وتضعانه في عزلة عائلية قاسية، تشعره بأنه غريب عليهما رغم أنه مازال يعولهما، وإنه لولا المقهي لفكر في الانتحار.

شكي لي في نهاية أيامه من مضاعفات مرض السكر، التي تسببت في بتر قدمه اليمنى، ولا يجد الرعاية الكافية من زوجته، بسبب طباعه العدوانية الشرسة التي اعترف لي بها، وإنه مازال يحلم بليلة واعدة في حضن فتاة ليل غير مكلفة. لم يكن من عادته أن يتصل بأحد تليفونيا. اتصل بي تليفونيا ذات مساء. أبلغني أنه أراد أن يسمع صوتي لا أكثر ولا أقل. أبلغتني زوجته في الصباح أنه توفي إلى رحمة الله. حرصت على أن أشهد دخوله إلى قبره. ما أن انهال التراب على الفتحة حتى بكيت بحرقة موجعة، لفتت نظر كل من حولي. كنت أحب في "صادق سلماوي" شيئاً لم استطع أن أتبينه بوضوح إلا بعد شهور من وفاته. أحببت فيه رمز العاجز المظلوم.

٤- صبرى رضوان

كنت أعرف أن "صبري رضوان" يجمع بين مهنتي التمثيل والإخراج. شاهدت له بعض الأدوار الفرعية في بعض الأفلام والمسلسلات التليفزيونية، مثلما شاهدت له بعض المسرحيات التي

أخرجها، ولم تحقق رواجاً يذكر. كنت أشارك الكثيرين رأيهم في أنه مخرج مسرحي تجاري فاشل، لا يحقق الأهداف التجارية للنصوص التي يخرجها، وإنه يتسول الأدوار التمثيلية من خلال علاقات نفعية خاصة، شديدة الخصوصية. كانت أدواره تثير في نفسي حالة من الملل والنفور.

كنت أعاني من فشل ذريع في عرض نصوصي المسرحية على خشبة أي مسرح. لجان القراءة ترفض النصوص، وليس من حقي الإطلاع على أسباب الرفض. قال لي زميل وصديق في نفس المجال الفني إن نصوصي تتعرض للأوضاع السياسية بشكل جارح وساخط، ولن تجد من يتحمس لإنتاجها، في زمن حرج، هو بداية التسعينيات من القرن العشرين. نصحني زميل آخر بضرورة تكوين علاقة شديدة الخصوصية بممثل أو ممثلة أو مخرج، حتى تنفتح أمامي أبواب الشهرة والعائد المادي. لم أكن أعرف كيف أكون علاقة شخصية بفنان، وما هي حدود هذه العلاقة، التي يمكن أن أقبلها وأقدر على دفع ضريبتها. جودة النص وحدها لا تمثل جواز مرور، وليس هناك متخصص محايد، يصحح جوانب النقص، في نص صالح للعرض بعد تصويبه. تلك كانت بدايات تجربتي للكتابة المسرحية.

كنت أقرأ بابا للمسرح في صحيفة يومية، عندما أصبت بالدهشة والذهول، وأنا اقرأ خبر تعيين "صبري رضوان" رئيساً لجهاز

مسرحي مهم بوزارة الثقافة. لم أصدق ما قرأت. لم أتصور أن "صبري رضوان" يملك مواهب وإمكانيات رئاسة جهاز هام مثل هذا الجهاز. أصبح الخبر محل حديث الأوساط الفنية والزملاء والأصدقاء. كانت معظم التعليقات سلبية. قال أحدهم: "هناك علاقة خاصة شديدة الخصوصية تربطه بمسئول كبير". قال آخر: "هو يعرف كيف يصل إلى ما يريد بصرف النظر عن الأحقية والكفاءة". قال لي ناقد مسرحي محترف، هو "جمال بدري"، وكان يعطف على قضيتي الفنية: "صبري رضوان" هو الوحيد الذي يستطيع أن يجيز لك نصا مسرحياً، إذا استطعت أن تخترقه، وتنفذ إلى أعماقه، وتقيم بينك وبينه علاقة شديدة الخصوصية. لم أشأ أن أضيع الفرصة. قررت أن أجرب حكاية العلاقات الخصوصية.

ذهبت إلى مكتبه الفخم الوثير، الذي يشبه مكتب وزير. سمحت لي مديرة مكتبه بالدخول بعد استئذانه. لم أشأ أن أقدم له النص بطريقة تقليدية، حتى لا يحيله إلى لجنة القراءة، التي سوف تخزنه في سجل المحفوظات، ولا يري النور قبل أن تقوم القيامة. عرضت عليه فكرة النص، مكتوبة في صفحتين. قرأها بإمعان. بدا عليه الإعجاب بالفكرة، بشرط أن أقوم بتعديل في الحدث الرئيسي للمسرحية، حيث يكتشف بطل المسرحية (المدير المالي لإحدي الشركات) أن تقرير الميزانية الذي قدمه ليس تقريره، والتوقيع الموقع

على التقرير ليس توقيعه، وهكذا تبدأ الأزمة الدرامية التي تدور حولها الأحداث. أعجبتني الفكرة إلى حد الدهشة والذهول. نهض من خلف مكتبه. توسط فراغ المكتب. أخذ يشرح لي بطريقة تمثيلية كيف تجري أحداث المسرحية. أدركت أن فرصة نجاحي قد فتحت أبوابها على مصراعيها. طلبت منه أن نصبح أصدقاء إلى الأبد، فلم يعترض. طلبت منه أن يصبح معلمي وملهمي ومثلي الأعلى، فرمقني بابتسامة غامضة وبنظرة حب خجولة، تشي بأننا نعيش حالة من الغرام لا ذنب لنا فيها.

غبت عن "صبري رضوان" عدة شهور، وعدت إليه بالنص الكامل للمسرحية، وأنا سعيد بالحبكة الدرامية التي ألهمني بها. طلب مني مهلة قراءة. عدت إليه في الموعد المحدد. أبدي منتهي إعجابه بالنص. صرح لي بأنني الكاتب المسرحي المنشود، الذي يعبر عن هموم العصر والأوان، وإني قد تجاوزت السابقين وليس لي مثيل في اللاحقين. أردت أن أتلمس الجانب الشخصي في العلاقة فسألته ما إذا كان يطلب مني شيئاً، فأجابني بخجل، يشبه ذاك الخجل الأنثوي الولهان: "ليس أكثر من الصداقة، وربما أكثر من الصداقة بقليل". سألته ما إذا كان من حقي أن أحلم بأن يخرج لي مسرحيتي. أجابني بثقة ويقين بأنه قد اتخذ هذا القرار قبل أن يخطر ببالي.

طلب مني أن أزوره بانتظام في شقته المطلة على نيل "الزمالك". أسعدني في هذا الطلب. لم أكن أحلم به ولا حتى في المنام. هكذا يتحقق البعد الشخصي في العلاقة، الذي نصحني به صديقي الناقد "جمال البدري".

وأخذت أتردد عليه في شقته. جمعني في مجلسه بعض الممثلين والممثلات. تعودت أن أشاركهم الطعام والشراب (الويسكي المستورد) والكثير من السجائر المحشوة بالمغيبات. هنأني "جمال البدري" بنجاحي في الدخول إلى عالم "صبري رضوان" الخاص. أكد لي بأن هذا هو المدخل السحري للنجاح. نبهني إلى ضرورة أن أحمل معي زجاجة ويسكي فاخرة مستوردة وأنا ذاهب إلى كل دعوة ولقاء. ذكرني ذات مرة، وهو يرمقني بنظرة تلميح مقصودة، لم أفهم مغزاها آنذاك الوقت، أنني قطعت فقط أول الطريق في العلاقة الخصوصية مع "صبري رضوان"، وإن على أن أعمل في اكتشاف الخطوة التالية، وتحقيقها دون تردد. لم أفهم ما قصد إليه "جمال البدري"، فقررت أن أعتمد على الزمن.

انتظرت طويلاً وأنا أعيش على أمل أن يأتي اليوم الذي يدعوني فيه "صبري رضوان" لحضور بروفات المسرحية التي وعدني بإخراجها. لم يأت هذا اليوم. بدأ يخالجني شعور بأن هذا اليوم لن يأتي. شكوت إلى "البدري" فقال لي: "يبدو أنك لم تخط الخطوة

الهامة المطلوبة في علاقتك الخاصة بصبري رضوان. سألته عن مضمون هذه الخطوة. أفهمني أنني يجب أن أكتشفها بنفسي. فشلت في مسألة الاكتشاف هذه.

مرت شهور قبل أن يدعوني "صبري رضوان" إلى لقاء خاص في شقته. لقاء جمعني به على انفراد. كان يرتدي بيجامة حمراء ويتثنى في مشيته، ويتكلم بنعومة ودلال، ويرمقني بنظرات أنثوية لا يغيب مغزاها. شربنا كؤوساً كثيرة، دخنا الكثير من السجائر المحشوة.. سيجارة من سيجارة. تناولنا العشاء بشهية منقطعة النظير. سألني فجأة وعلي غير انتظار: "ماذا تنتظر؟ تأخرت كثيراً... هل تحتاج إلى عزومة؟.. هل أنت غبي أم تتصنع الغباء؟" عندما أبديت أنني لا أفهم ما يقصد، سألني ما إذا كنت أحتاج إلى أن أتمدد قليلاً فوق السرير. اكتشفت أنني كنت غبياً بحق، ولم يبق أمامي سوى تصنع الغباء. ولم يبق أمامه سوى أن ينهي اللقاء، بشكل يوحي بأنه يطردني من شقته شر طردة، وبطريقة مهينة. لم يعد يدعوني إلى سهراته الحمراء والزرقاء في شقته، بما يوحي بنهاية الصداقة والعلاقة.

زرته في مكتبه بعد شهر. سألته عن أخبار مسرحيتي. تصنع الإحباط وخيبة الأمل وهو يقول لي: "للأسف.. لم توافق الرقابة على نصي المسرحي.. النص يهاجم النظام وأنت خرجت على النظام".

التقيت بصديقي "جمال البدري"، وحكيت له ما حدث. استغرق في ضحك أقرب إلى الإشفاق وهو يقول لي بواقعية مفرطة: "فشلت في إنجاز الخطوة الأخيرة المهمة جداً". أقسمت ألا أتركه دون أن يكشف لي عن مغزي الخطوة الأخيرة بمنتهي الصراحة والوضوح. لم يعد هناك ما يمنعه من الكشف والتوضيح بعد فشل الصفقة. قال لي بمنتهي الشفافية والوضوح.

– صبري رضوان رجل "مثلي".. يحب صداقة الرجال ولا يهوي معاشرة النساء.

٥- مصطفى غنام

لم أكن قد تعرفت عليه، ولا التقيت به من قبل، قبل أن يهاتفني بالتليفون ذات مساء صيفي حار. أخبرني أنه قد أجيز له نص مسرحي بقطاع المسرح الحكومي، وهو يهنئني بالإجازة أولاً، ويشرفه؟ ثانياً؟ أن يخرج هذا النص الذي قرأه بعناية وأعجب به، إذا وافقت أنا على ذلك. لم أتردد لحظة في قبول عرضه، فمازلت؟ وقتها؟ كاتباً مسرحياً مغموراً، ولا خبرة لي في التعامل مع المخرجين، الذين كانوا يحظون بسمعة سيئة، ولهم شروط ومطالب تحط من قدر الكاتب، وتسمح لهم بالتلاعب في النص.

ضرب لي موعداً في شقته بحي "سيدي بشر" بالإسكندرية. تناولنا بعض الكؤوس مع عشاء خفيف. اقتحمني بعينين جاحظتين، تحاولان قراءة نواياي، وما يمكن أن أخفيه، مما يؤثر على عقد الصفقة. كان يجز على أسنانه من آن لآخر، ربما بحكم التعود، ما أوهمني بأن له فكاً مفترساً. كنت قد علمت من صديق مخلص في ساحة الفن المسرحي أنه مخرج مغمور، انتهازي محترف، لا يشغله سوى عائد مادي ضخم بوسائل مشروعة أو غير مشروعة، وقد ألمح لي الصديق بأن ما هو غير مشروع قد أصبح مشروعاً بحكم العادة والتقاليد المرعية، وتدني مستوي الأجور، حتى أن راتب مصطفي غنام لا يكفيه لكيّ ملابسه وتلميع حذائه ومصروف المقهى، وهو إنسان متزوج، وقد أنجب ولداً وبنتين، وحصل على شقة "بحي الهرم" بالقاهرة، نتيجة مقايضة غامضة مع ممثل غنائي كبير.

لم يبد اهتماماً كبيراً وأنا أسأله عن الشكل المسرحي الذي يبرز مضمون النص، وقال لي باستخفاف: "المشاهد لم يعد ينشغل بالمضمون.. إنه يبحث عن المتعة الخالية من المنغصات. أدركت بعد جدال متكرر عقيم أنه يعاني من جمود في المشاعر ونقص في الخيال، وافتقاد لطموح حقيقي لصنع مستقبل. أردت أن أشحذ همته وأثير حماسه فوعدته بأن أتكفل بالتغطية الإعلامية للعرض واهتمام النقاد والمتابعين، فقال لي بنفور واستكبار إنه لا يقيم وزناً

للاهتمام الإعلامي ودراسات النقاد الفنيين. وعندما أبديت دهشتي واستغرابي سألني بسخرية متفهمة: "هل تريد أن تضحي بأجرك للصرف على الإعلاميين والنقاد؟" وعندما استوضحت الأمر من زميل عليم ببواطن الأمور، أشفق على سذاجتي وقال لي بعطف: "مصطفي غنام مخرج تجاري متواضع لا يستحق أن يتوقف عند أعماله الإعلاميون والنقاد".

فاجأني بعد أسابيع أن ممثلة كبيرة مرموقة قد قبلت بطولة العرض. لم أصدق الخبر إلا بعد أن أبلغني بأن الممثلة الكبيرة "ليلي تامر" تريد أن تتعرف على زرتها في منزلها مع "مصطفي غنام". استقبلتني بحرارة مدهشة، وكدت أصدق أنني لست مبتدئاً، بل إنني كاتب مسرحي عريق وقدير. أخذت تقول لي ما تصورت أن أسمعه من "مصطفي غنام". حدثتني عن روعة النص وقوة البناء والإحكام وعمق الصراع الدرامي. قالت لي في نهاية اللقاء: "كنت قد قررت اعتزال المسرح، ولكن هذا النص أغراني بالعودة إلى الخشبة".

وبدأت "البروفات" ودعيت لمشاهدتها. فوجئت بأن بطل المسرحية مغن فاشل ومدمن مغيبات من كل الأنواع وصاحب ثروة كبيرة مجهولة المصادر ولا علاقة له بالتمثيل. لم أتعرف على أي واحد من باقي الممثلين. ممثلون هواة غير معروفين ولا يبدو أن لهم أي خبرة سابقة أو طويلة. كان من بينهم راقصة درجة ثالثة وغير

مؤهلة وتعمل في ملهي ليلي خليع. ما آثار عجبي هو كيف تقبل "ليلي تامر" أن تشترك في التمثيل مع هذه الحفنة الضالة. شعرت أنني أمام مهزلة تستحق التأمل والاستغراب. ما ضاعف عجبي هو أنني كنت أستمع لحوارات نص آخر غير النص الذي كتبته، ولو أن "ليلي تامر" هي الوحيدة التي التزمت بكلمات النص الأصلي. حمدت لها هذه الأمانة الفنية، ولم أحمد لمصطفي غنام السماح للممثلين بتأليف نص آخر. وعندما أبديت اعتراضي القاطع ذكرني "غنام" بأنه هو الذي يحدد أجري عن هذه المسرحية. وعندما شكوت لزميلي المستنير العليم ببواطن الأمور قال لي بصراحة جارحة: "هذا هو الجو السائد..إما أن تقبل الواقع، أو تغيب في جب النسيان.. انتهي زمن توفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي وسعد الدين وهبة ونعمان عاشور".

وبدأ عرض المسرحية على مسرح "بيرم التونسي" في ليالي صيف الإسكندرية. عشت على أمل أن ترفض الرقابة الفنية الإخلال بحرفية النص الأصلي. حضر مندوب الرقابة العرض الافتتاحي وأبدي رضاه التام عما سمعه ورآه، ولم يفرق بين ما يجرح مشاعر المتفرجين وما لا يجرحهم. وعندما استوقفته لأعترض على الخلل، ربت على كتفي وملسّ على شعر رأسي وهو يقول: "تأخرت في الاحتجاج.. يمكنك الآن أن تحرر محضراً في قسم الشرطة". عاد

يقول عندما فتح له السائق باب سيارته: "أنت كاتب مسرحي له مستقبل، ولكن عليك أن تنتظر التوقيت المناسب لينفتح لك باب المستقبل". وعندما سألته عن موعد التوقيت المناسب، قال لي إن هذا ليس من اختصاص الرقابة الفنية.

وحان موعد دفع الأجور. حضر المندوب المالي إلى مسرح "بيرم التونسي". كنت أقرأ الفاتحة على روحه كل مساء وأنا أشاهد العرض. تمنيت أن يبعث من مرقده، وأحكي له ما يجري في كواليس المسرح، ليكتب قصيدة زجلية هزلية تهكمية تبعث على الضحك، الذي هو ضحك كالبكاء، كما قال "المتنبي". وقعت على كشف الأجور. استلمت بضعة آلاف، وضعتها في حقيبة يدي. لا أذكر كيف انشقت الأرض، وظهر أمامي "مصطفي غنام". بشحمه ولحمه، ودعاني منفرداً إلى مكتبه. قال لي بلا مقدمات: "أنت تعرف ما يجب عمله الآن". فهمت قصده، ولم أكن مستعداً لدفع النسبة، وكفي ما حدث من تدمير النص. وقلت له بلهجة قاطعة: "لا أريد أن أعرف.. لست مستعداً لعمل ما تريد مني أن أعمله". قال لي بنبرة تهديد: "أنت لا تعرف الثمن الفادح الذي سوف تدفعه بسبب تقاعسك". بعد ثلاثة أيام استدعاني مدير المسرح في مكتبه. أفهمني أن المخرج لا يستطيع أن يواصل حياته ويلبي حاجاته بدون هبة يتفضل بها المؤلف عليه. اعتذرت عن الاستجابة لطلبه لأنني لم

أكن مقتنعا بذلك، ولأنني لم أفعل مثل هذا الشيء في حياتي قاطبة. قال لي بلهجة تحذير: "هل تتحمل مخاطرة مقاطعة المخرجين لمسرحياتك". قلت له بلهجة رمزية: "وهل تتوقع مني مواصلة الكتابة للمسرح؟".

بقي عندي سؤال، لم أقاوم شهوة الحصول على إجابة له. رتبت لقاء مع "ليلي تامر" لأفوز بالإجابة. سألتها بفضول حائر: "كيف قبلت العمل مع هذا المخرج التجاري الهازل؟ وكيف قبلت الشراكة مع هؤلاء الممثلين المبتدئين الجهلاء؟". رمقتني بابتسامة واعية مشفقة وهي تقول: "وكيف قبلت أنت العبث في نصك المسرحي حتى تحول إلى هراء؟". عندما أبديت خشيتي على نجوميتها قالت إنها التزمت بكل حرف كتبته في النص، وتركت الحكم للمتفرجين. عندما قلت لها إنني كاتب مبتدئا أشق طريقي في بداياته، قالت لي بلهجة الخبيرة المتفهمة: "البداية لها ضريبتها وأنت لست مستعداً لدفع الضريبة". عادت تقول لي بتلميح لا يخفي مغزاه: "هل تريد لنا أن نعتزل مهنتنا في زمن عقيم؟! دعنا نواصل العمل بقلوب ميتة وعقول خاوية من المضامين.. "مصطفي غانم" هو النجم الحقيقي اللامع لهذا الزمن".

بعد ذلك بعدة سنوات أصبح "مصطفي غانم" صاحب مسرح خاص، يوظف كبار الممثلين والممثلات لبطولات أعماله، وتعرض

مسرحياته في عواصم الناطقين بالعربية. يغير سيارته "المرسيدس" كل عام. يمتلك "فيلا" فاخرة في منتجع "مارينا". يحوز شقة فاخرة في "الزمالك". يستضيف الملوك والأمراء في عروضه الافتتاحية. أصبحت له شبكة علاقات وطيدة بكبار المسئولين ورجال الأعمال. امتلك شركة إنتاج تعمل في شتي مجالات الفنون والآداب والإعلام. أخذت أتأمل هذه الصورة وقد انقطعت صلتي تماماً بالكتابة للمسرح.

٦- إلهام عبد المجيد

ما إن تراها حتى ينتفض في بدنك كل شيء.. الجنس، والألفة، والعقل. تحس بأنك تعرفها منذ أن كنت صبياً، تستطيع أن تقول لها أي شيء يخطر على بالك، دون حرج أو تحفظ أو مراجعة، عندما تلقاها لأول مرة. تملك كاريزما خاصة، تستأثر بلبك وتستولي عليك، ولا تتردد في أن توقع لها على بياض. هي تعرف كل الناس، كل من تلقاهم ومن لا تلقاهم. وما أن تلقاها حتى تقسم بأنك تعرفها منذ زمن، فقد ولدت وعاشت في خيالك، مثلها مثل النجوم المسطورة في كتب التاريخ. ما أن تلقاها حتى تحس بأنك أمام كائن سمعت عنه في الأساطير وحكايات ما قبل النوم. البساطة والتلقائية والتفاهم البعيد عن الضوابط والتحفظات والأعراف والتقاليد، كأنما هي الإنسان الأول الذي لم يسجن بعد في منظومة قيود وسلاسل

مكبلة للحرية، وتحتفظ في نفس الوقت بكل ما تعارف عليه الناس من أصول ومعاملات اجتماعية، لا تخدش الحياء ولا تهز القيم المتعارف عليها، ولا تشي بشبهة انحراف عن مطالب الخلق القويم. تلك هي ظلال صورة "إلهام عبد المجيد" التي تعرفت عليها من خلال المقابلات واللقاءات الأولى.. تلك الصورة التي استدرجتني إلى فضول جامح لأعرف كيف ترجمت "إلهام" هذه الصورة إلى قرارات وسلوكيات في دنيا الواقع.

هي قريبة لي قرابة نسب. تعرفت عليها من خلال زيارات عائلية متبادلة. لفت نظري قوامها الممشوق الطويل، سمرتها الخلابة، شعرها الأسود الفاحم المنسدل على كتفها، عيناها التي تتكلم أكثر مما ترى، شفتاها المكتنزتان، ذبذبات صوتها التي تنغم الكلمات، خدودها المحمرة بحمرة شبابية رغم أنها في أربعينيات العمر. هي تجمع بين البساطة والحيوية ومع ذلك يصعب اقتحامها وإزالة الفوارق والحدود. أخذت أعرف عن حياتها الكثير بعد أن زاد العشم وتنامت الألفة. هي لا تحمل أكثر من الشهادة الابتدائية أيام الستينيات. لم تكمل تعليمها بسبب فشل أبيها في نشاطه التجاري. تزوجت من تاجر كبير. زواج تقليدي تحول إلى قصة حب. ضحي الزوج بصفقات كبيرة كي لا يبتعد عنها ولا تغيب عن ناظره. يحكي أنه كان يعاشرها في السرير "مرة" كل يومين بانتظام حتى أصيب

بمرض القلب الذي تضاعفت أعراضه حتى أقعده عن العمل، ومازال أبناؤه الصبية الأربعة في المراحل الأولي من التعليم. علمت من قريب لها أن تجارته أوشكت على الإفلاس. لولا أن تطوع شريكه المخلص بتحمل المسئولية كاملة دون نقصان. رعي الزوجة حتى بدا أنه هو الزوج الحقيقي، لا سيما أنه لم يكن متزوجاً. لم أسمع أن أحداً قد شك في علاقته "بإلهام"، بل شاع أنه كان نموذجا للأمانة والشرف والحفاظ على سمعة زوجها القعيد وشريكه في التجارة التي أصبح يتحمل مسئولياتها وحده. اطمأن الأقارب والمعارف إلى علاقته بإلهام، عندما لاحظوا أن إلهام ضاعفت من عطفها وحنانها ورعايتها لزوجها، حتى أنها كانت تدلله وتهدهده كأن كل شيء على ما يرام، وكأن قصة الحب القديم لم تستنفذ أغراضها.

باشر "أدهم" رعايته للأبناء كأنه الأب الحقيقي لهم. أشرف على تعليمهم بجدية وحزم، حتى أنهوا تعليمهم بدرجات متفاوتة، اثنان منهم شاركوه في التجارة، وعمل ثالثهم في "الكويت"، ورابعهم في "السعودية". أصبحوا أغنياء وأصحاب زوجات، ولهم علاقات متشعبة، ناجحة ومفيدة، رغم بعض المصاعب التي كان "أدهم" يتولي علاجها بصدق ومهارة. بدا واضحاً أن "أدهم" أصبح شريكاً للزوج العاجز في إلهام وفي أبنائه وفي تجارته وفي أقاربه ومعارفه. ولم يسمع أحد بظهور مشكلة واحدة بينه وبين إلهام، ولم يشك أحد

في أمانته، رغم أنه كان يغيب عن الإسكندرية، بصحبة إلهام، بضعة أيام، يقضيانها في "دسوق" أو "كفر الشيخ" أو "المنصورة" أو "القاهرة" لقضاء مصالح أو تعاقدات تجارية، ولم يعرف أحد ما إذا كانا يقضيان الليل في سرير واحد أم سريرين . كان "محيي" (زوج إلهام) راضياً تمام الرضا عن نجاحات أسرته وهو راقد في سريره، ويعتبر هذا النجاح منحة من الرب وبفضل حكمة "إلهام" وإخلاص "أدهم" المنقطع النظير.

كان "أدهم" ينتمي لأصل "نوبي" من قبيلة تعيش في جنوب أسوان. وهو فارع الطول، ذو سمرة جنوبية غامقة، له أنف مدبب طويل، يتمتع بذكاء حاد وقدرة على كسب ثقة الآخرين وإشعارهم بالأمان. يتصف بالصراحة والوضوح ومع ذلك يصعب اقتحامه والغوص في أعماقه واختراق نواياه. وهو قوي البنية مفتول العضلات كأنه بطل مصارعة أو ملاكمة. ويدفع الآخرين إلى أن يعملوا له ألف حساب، قبل أن يتجاوزوا حدودهم. ويبدو أشبه ببئر عميق يصعب أن تتعرف على ما يحويه هذا البئر في أعماقها.

أذكر أنها زارتني يوماً في بيتي، وكانت زوجتي غائبة تقضي مصلحة. لم تشعر بأي حرج بسبب غياب زوجتي. هي كما أعرفها، واثقة في نفسها، تتعامل مع الجميع بعفوية وتلقائية كأنها صديقة وحبيبة كل سكان العالم، تغمر الجميع بمحبتها وتوقف أي متهور

عند حده بمنتهي الرقة واللباقة دونما غضب أو افتعال أزمة. تحدثنا عن الأحوال والأخبار وبعض شئون الدنيا. هي عودتني أن أسترسل في حديثي معها بلا ضوابط أو تحفظات. أحدثها عن بعض تصرفات المعارف بتلميحات جريئة وقفشات ذات مغزي ولها ما وراءها، فتبادني تلميات وقفشات أكثر جرأة وأكثر كشفاً للمقاصد والنوايا، حتى أنني نسيت نفسي في هذه الجلسة، وتجاوزت تلقائيتي كل الخطوط الحمراء، فأطلقت بعض التعليقات الإباحية المفرطة في العشم. جلست بجوارها. مررت بيدي على ساقها، احتويت كتفيها بذراعي، ضممتها إلى صدري بحرارة مكبوتة منذ زمن طويل، قربت وجهي من وجهها، كدت أقبلها لولا أنها أنامت رأسي على صدرها لتخفف من بركان انفلاتي غير المحسوب. ظلت تهدئ من هياج مشاعري بالطبطبة على ظهري، دون أن تعاتبني أو تلومني أو توبخني. استعدت هدوئي بصعوبة بالغة. عادت تواصل حديثها كأن شيئاً لم يكن وبراءة الأطفال في عيني. أكدت لي أنني أعز صديق في حياتها، وإنها قالت لي ما لم تقله لأحد غيري. قالت لي في نهاية الزيارة: "سلم لي على زوجتك الوفية الطيبة.. هي لا تستحق أن تغضبها أو تجرح مشاعرها". كنت قد استعدت صوابي وخجلت من نفسي وأنا أودعها. شعرت بحرجي فقبلتني في جبهتي، قبلة أخت تقدر الضعف الإنساني. عادت تقول لي بذكاء ألمعي حاد: "هناك سؤال يحيرك يتعلق بحياتي.. بعلاقتي بمحيي وأدهم.. أنا أقرأ

السؤال في عينيك كلما قابلتك.. سوف أجيبك عليه في الوقت المناسب". لم تكن قارئة فنجان بل قارئة نفوس. قرأت السؤال الذي أخفيه ويلح على هواجسي بلا انقطاع، ولم تعطني الإجابة.

مرت بضع سنوات دون أن أراها أو أحرص على مقابلتها، ربما بسبب الحرج من تحرشي بها الذي لم يكن بحسن نية وكان ينقصه الحذر والتعقل. سمعت أن زوجها عاني طويلاً من أعراض وأمراض القلب والسكر وجلطة في المخ. حرصت على زيارتها والاطمئنان على محيي (زوجها)، الذي بدا أنه يعيش أيامه الأخيرة. لم أرها حزينة ومكتئبة وبائسة مثلما رأيتها وقد تفرغت لرعاية زوجها وانقطعت عن أية اهتمامات أخرى، تقيم معه بجوار سريره ليل نهار. لا تذوق طعم النوم. تمنحه عطفاً وحناناً منقطع النظير. تدلله وتقبله وتنام بجواره وتحتضنه كأنه طفل كبير يقتات من حبها وذكريات عشق قديم. لم أستطع أن أفرق بين أم وزوجة وهي تعامله.

حرصت على معاودة "محيي" بانتظام، ربما لأفك رموز شفرة سرية غامضة مستعصية على الحل. كان "أدهم" أيضاً يزوره بانتظام، يحضر له الدواء وبعض الأطعمة التي يحبها والمسموح بها، يحدثه عن أخبار التجارة والأحباب والأصدقاء. أراقب "أدهم" بفضول مستتر، أحاول أن أقرأ مفاتيح شخصيته دون جدوي أو طائل، عيناه جامدتان مصمتتان محاديتان لا تكشف عن أي شيء، علاقة ثلاثية

(محيي وإلهام وأدهم) هادئة وناعمة، خالية من أي اضطراب أو خلافات أو توترات، تتحقق من خلالها منافع كثيرة ومصالح متبادلة وعواطف جياشة، وكل المحيطين يتقبلون العلاقة على علاتها، بلا تساؤلات، بلا غضب أو احتجاج، وربما يتقبلون برضا ما يثور في نفوسهم من هواجس وشكوك طالما أن كل شيء يسير على ما يرام وخير ما يرام. استبد بي الشك الآثم في لحظة فخمنت أن "محيي" بفطنته وذكائه الحاد يستطيع أن يستشف وجود علاقة ما بين زوجته وأدهم، وهو لا يعترض ولا يملك حق الاعتراض بسبب مرضه وعجزه عن مزاولة أمور تجارته، ربما يعي أن التجارة هي التجارة، لا تعرف وطناً ولا ديناً ولا حرمة.

وحان وقت الرحيل. توفي "محيي". ولولت "إلهام" ولطمت خدودها. بكت حتى تورمت عيناها. بدت حزينة كأن لم تحزن من قبل، حتى شعر البعض أنها تقتل نفسها وربما تفارق الحياة. وقفت أنا وأدهم أمام فوهة القبر، فودعه وهو يتواري داخل مثواه الأخير. رمقت أدهم بنظرة فاحصة. أدركت أنه نموذج يحتذي في التحكم في مشاعره وأحاسيسه. رجحت أنه يجمع بين التاجر الناجح والمحب العظيم والوفي لصديقه وصاحب هيبة يصعب المساس بها.

مرت سنوات. استغرقتني مشاغل الدنيا. لم أعد أزور إلهام أو ألتقي بها في مناسبات اجتماعية. علمت أنها ترقد فوق سرير مرض

عضال. ضعفت عضلة القلب. هناك مشكلة مستعصية في أحد الصمامات. تحتاج لتغيير ثلاثة شرايين. كبر أبناؤها وتولوا تجارة أبيهم، وهكذا اختفي أدهم من حياة الأسرة. ذهبت إلى منزل إلهام لأعودها بكل الحب والتقدير واللهفة، بحكم منزلتها الخاصة في قلبي وعقلي. كنت أجلس بجوار سريرها وحدي في آخر زيارة. هي التي أخبرتني بأن هذه هي الزيارة الأخيرة، وإنها توشك على وداع الحياة بكل رضا وسرور وتسليم بكل ما جرى، وإنها تريد أن تقول لي ما تمنيت أن أعرفه منذ سنين طوال، ولم أرغب أن أصارحها به. قالت لي بصوت متهدج مبحوح يبدو عليه إنهاك السنين: "كانت حياتي صعبة ومعقدة.. عجز زوجي عن العمل وإشباع حاجاتي.. واجهت محنة رعاية أبنائي.. الرعاية والتعليم والعمل والزواج.. تطوع أدهم بتحمل كامل المسئولية بلا تردد أو ضيق أو مقايضة. أصبح بديل الزوج العاجز، والأب الحقيقي لأولادي.. تحول شعوره بالمسئولية إلى حب جارف من ناحيتي.. لم يقايضني ولم يطلب ثمناً لتضحياته.. تبادلنا المشاعر.. زالت كل الحدود.. لم تعد هناك مقاومة.. جمعنا سرير واحد.. لم تظهر أي مشكلة من أي نوع.. الأبناء مرتاحون.. محيي راض عن صديق عمره. الأهل والمعارف يتقبلون الوضع على علاته، ولا تنتابهم أية شكوك.. ربما ساورتهم ريبة ولكنهم تقبلوا الوضع طالما أن الحياة تسير سيراً عادياً ولا أحد يشكو من منغصات.. سار كل شيء على ما يرام.. محيي يلقي رعاية

بـلا نقصـان.. نجحـت التجـارة.. نجـح الأبنـاء وأصـبح لـي أحفـاد.. أحظـي بحـب الجميـع وتقـديرهم.. أسـاهم فـي حـل مشـاكل الأهـل والأقارب.. احتفظ بحبي لأدهم بعيداً عن الأعين والمتلصصين.. لـم أملك إرادة مقاومة حبي لأدهـم وتسـليم نفسـي لـه، بعد أن سـلم لـي نفسه فمنحني أكثر مما أتمني وأتوقع.

صـمتت قلـيلاً. عـادت تلـتقط أنفاسـها بصـعوبة وهـي تسـألني بحيرة:

– هل أنا مذنبة ؟ هل أنا فاجرة؟ هل آذيت أحداً؟ هل ألحقت ضرراً بأحد؟

عزائي أنني سآخذ سري معي إلى قبري.. سأترك الحكم للقادر على إصدار الحكم بنزاهة ورحمة.

قلت لها على سبيل السلوي والعزاء.

– لم تقصري في حق أحد. لم تجرحي شعور أحد.. ستأخذين سرك معك.. اتركي الحكـم للقـادر علـى التبرئـة والغفـران. اسـتأذنتني فـي صلاة ركعتين وهي نائمة في سريرها. أخذت أتأملها بعطف وإشفاق. لا أعرف إن كانت قد فارقت الحياة قبل إنهاء الركعتين أو بعدهما.

٧- إبراهيم طايل

لـم يكـن إبـراهيم طايـل قريبـاً إلـى قلبـي منـذ تعرفـت عليـه بعـد تخرجنـا مـن الكليـة الحربيـة، وعملنـا سـوياً فـي الكتيبـة "١٥" مشـاه بالإسـكندرية. لا أخفـي أننـي كنـت مـأخوذا بعينيـه الزرقـاوتين، وجهـه الأبيض المستدير وشعره المائل للإصفرار، بما يوحي بأنه من أصـول تركيـة وفـدت إلـى مصـر فـي العصـر المملـوكي أو العثمـاني. دروس التاريخ في المرحلة الثانوية رسبت في نفسي كراهية عميقة للعصرين، بسـبب المظـالم إلـى عاناهـا الشـعب المصـري آنـذاك الوقـت. كنـا نسـتمتع بربيـع عـام ١٩٥٥، والثـورة قـد اسـتقرت وأخـذت تواصـل تقدمها للأمام ولا تتوقف عن الإنجاز. فهمنا من وسائل الإعلام أننا أبناء العهد الجديد (الثورة)، ونحن محسوبون عليه، واقتنعنا بذلك تمام الاقتناع رغم أننا لم ننشغل بالتفاصيل من منطلق أن النظام ينجز ونحن نبارك.

عرفـت أن "إبـراهيم طايـل" اسـتأجر شـقة خاصـة فـي حـي "كليوبـاترا"، مطلـة علـى شـاطئ البحـر المتوسـط، ويصـطحب فيهـا فتيـات الليـل، ولا يسـمح لأحـد منـا أن يضـاجع امـرأة فـي عقـر داره. انتقلنا بعد ذلك للخدمة "بالعريش" في سيناء، ولـم يكـن يجمعني به سـوى دورة تدريبيـة أو منـاورة أو جلسـة مسـائية صـامتة فـي نـادي الضـباط بالمدينـة، حيـث دعـاني ذات مـرة للعـب "الشـطرنج". لعبنـا

أربعة أدوار دون أن ينطق بكلمة واحدة، وهكذا لم أعرف عن حياته الكثير، وبدا إنساناً خالياً من أي ميول أو رغبات. ثم اندلع العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) في نهاية عام ١٩٥٦. لم نلتحم بالعدو الإسرائيلي في سيناء، ثم صدر قرار الانسحاب فانسحبنا فرادي وجماعات. ولم ألتق "بطايل" إلا عندما تجمعت وحدتنا مرة أخري في منطقة الهرم بالقاهرة في بداية عام ١٩٥٧.

كان من الطبيعي أن نستعيد من آن لآخر ذكريات العدوان الثلاثي الخاطف الذي لم يستمر أكثر من أيام، في حين استغرق انسحابنا حوالي الشهر. اعترفت له بأنني حسدته لأنه انسحب داخل سيارة ثم عبر قناة السويس في مركب، في حين أنني انسحبت في ظلمة الليالي سيراً على أقدامي وزحفا على بطني. ذكرته بأننا لم نر جندياً إسرائيلياً واحداً، فقال لي بعقل بارد:"لأننا لم نكن على خطوط التماس". قلت له إن القيادة رفضت الهزيمة وقررت المقاومة حتى آخر مواطن مدني. سألني إن كنت أصدق ذلك، فقلت له بحماس ثوري: "النصر آت لا ريب فيه". قال لي بعقل كسول ومشاعر ثلجية مجمدة، لا يعنيها ما يدور حولها: "أنت تذكرني بالصعيدي الذي جاء إلى القاهرة ودفع كل ما في جيبه ليشتري الترام". عندما تم انسحاب المعتدين بعد أن فزنا بتأميم قناة السويس، سألته إن كان يعتبر ذلك نصراً مبيناً، فقال لي بسلبية

قاتلة: "لا تشغل نفسك بمثل هذه الأمور أكثر من اللازم". كان "طايل" في نظري نموذجاً للمصري العازف عن المشاركة في صنع مستقبله وتقرير مصيره.

مضت عدة أشهر خالية من أحداث مهمة، علمت بعدها أن "طايل" قد قرر الزواج. دعانا، نحن أفراد دفعته، إلى حفل غداء في منزل الزوجية، الذي هو "فيلا" مملوكة لحماته في حي "الزيتون" بالقاهرة. استقبلتنا حماته بكلمات ترحيب عربية ركيكة تثير الضحك. قالت أنها تنتمي لأسرة تركية في "استنبول"، وفدت إلى مصر في عصر "محمد على"، وهي لا تجيد العربية، لا قراءة ولا كتابة، اللهم إلا بعض كلمات قليلة تعلمتها من الخدم. حكت لنا طويلاً عن مآثر وأفضال زوجها الراحل، الذي لم تنجب منه سوى "سناء" التي تزوجها "طايل"، والتي ورثت عن أبيها خمسون فداناً من أخصب أراضي القليوبية. مبروك عليك يا "طايل".. هكذا أمنت حياتك، ولم تعد تعنيك دعوة الثورة لاشتراكية وطنية. بدا واضحا من حديث "الحماة" أن أسرتها تعيش في عزلة تامة، حيث لا تربطها بالمحيطين بها، لا لغة ولا ثقافة مشتركة.

ثم ظهرت سناء في ثياب تقليدية أنيقة غالية الثمن، امرأة جميلة تجمع كل مواصفات الجمال التركي، البياض الناصع، والعيون الزرقاء، شعر أسود فاحم يصل إلى خصرها، خصر نحيل وسيقان

ممشوقة، تتكلم بالعربية بشكل مقبول، تعلمتها في المدارس التي حصلت من خلالها على شهادة "الثانوية العامة". لم تساعد أمها في إعداد المائدة. بدا أنها قليلة الخبرة بشئون الحياة، تتكلم قليلاً، جمل مفككة لا تؤدي إلى معان واضحة تكشف عن أفكار وأحاسيس محددة، تجمعها "بطايل" جذور صلات عائلية مشتركة، وطبيعة انطوائية مشتركة أيضاً، ومعزولة عن الواقع.

تتابعت الأحداث الوطنية بشكل متسارع. تحققت الوحدة بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨. سعيت بحمية وحماس للخدمة في إحدي وحدات الجيش المصري في سوريا. نجحت في مسعاي ووصل إلى وحدتي قرار انتدابي للخدمة بسوريا. تعطل تنفيذ القرار لأسباب لم أعرفها ولم أفهمها. فوجئت بأن القرار تحول لصالح "إبراهيم طايل"، الذي سافر إلى سوريا بدلاً مني، بعد إلغاء انتدابي. علمت بعد ذلك أن رئيس عمليات الوحدة كان صديقاً صدوقاً لطايل، وقد توسط لدي معارفه الكثر لاستبدال القرار، ونجح في مسعاه. كانت عيون رئيس العمليات من النوع الأزرق، وله بشرة ناصعة البياض، وربما لم يكن يحب سمرة وجهي، وسواد عيني، وعجزي عن تعميق علاقات شخصية خاصة معه كان بسبب عزوفي عن المجاملات الشخصية. لم أغفر لطايل هذه المؤامرة الصغيرة، بل أصبحت نقطة سوداء في علاقتي به. وعندما قلت لزميلي "فؤاد

مطاوع" بظرف ومزاح: "مازال العثمانيون يلاحقوننا"، استغرق في الضحك حتى دمعت عيناه، وقال لي بنفس الظرف: "أنت مصاب بعقدة تاريخية..أنا عيوني خضراء، فهل أنا سكسوني.. تذكر أننا في زمن المصالح والمقاربات الشخصية".

حل الخامس من يونيو ١٩٦٧. حدثت الهزيمة العسكرية الساحقة التي أرهصت بنهاية مشروع يوليو ١٩٥٢. انسحب مرة أخري مع المنسحبين من سيناء، بعد أن خلفنا وراءنا الأسلحة والمعدات. انسحبنا سيراً على الأقدام والركب والبطون والصدور. حرصنا على القرب من شاطئ البحر، حتى نغطس فيه أثناء الغارات الجوية. كانت صلتي قد انقطعت بـ "إبراهيم طايل". كان يخدم بقيادة القوات المصرية في اليمن، ثم انسحب مع هذه القوات، عندما انسحبت هي الأخري من اليمن بعد نكسة يونيو. تم إعادة بناء القوات المسلحة وانتشارها على الضفة الغربية لقناة السويس. كان من نصيبي أن أعمل بقيادة الجيش الثالث في قطاع السويس. فوجئت بأن "إبراهيم طايل" يعمل معي في نفس القيادة. أخيراً التقينا بعد سنوات ومصائب كثيرة. كان يعمل بفرع شئون الضباط. حدثت مخالفة إدارية جسيمة في وحدتي، لم أكن مسئولاً عنها، بل كان قائد الوحدة هو المسئول. ومع ذلك ألصقت بي تهمة المخالفة، وكان على أن انتظر العقاب. شرحت الأزمة لطايل بحكم وظيفته.

اقتنع بأنني غير مذنب. وعدني بشرح الأمر لقائد الجيش. فوجئت بأنه قد تم توقيع العقاب على شخصي بدلاً من قائد وحدتي المسئول، الذي أصبح يعمل مع "طايل" في قيادة الجيش. لم أغفر لطايل مرة أخري تخليه عني بحكم حساباته الشخصية.

مرت سنوات كثيرة. انقطعت صلتي بطايل مرة أخرى. كنت أقضي إجازة صيف في شاطئ "الأبيض" بمرسي مطروح مع أسرتي، عندما فوجئت بطايل وأسرته يصطاف معي في نفس الشاطيء. سألته عن أخباره. عرفت أنه قد تقاعد في رتبة اللواء. وعندما حدث الانفتاح بعد حرب أكتوبر اشتغل في تجارة "الأسمنت" وحقق أرباحاً هائلة، وما لبث أن اشتغل في تجارة "حديد التسليح"، فضاعف أرباحه بشكل منقطع النظير، وقد زوج ابنتيه زيجات موفقة، إلا أن ابنه "حمادة" قد تورط في زيجة فاشلة، وكان معيار الفشل من وجهة نظره أن الزوجة كانت عاقراً، ولم تنجب الوريث المأمول الذي يرث ثروته الهائلة. لم ينس أن يقول لي بأنه يعاني من مرض عضال في قلبه، ويحتاج لتركيب بطارية كهربية لتنشيط عضلة القلب. وهو يريد أن يري حفيده من "حمادة" بعيني رأسه قبل أن يفارق الحياة، وحتي لا يذهب جزء كبير من الثروة لزوجيّ بنتيه.

بدا شديد الإعجاب بابنتي "رانيا". قال لي إنها جميلة وحسنة التربية، ويتمني أن تصبح زوجة لابنه "حمادة"، بعد أن يطلقه من

زوجته العاقر. بدت رانيا معجبة بقسمات وجه "حمادة" المتناسقة الجذابة، وبأناقته وحسن مظهره، وبأدبه ورقته الزائدة عن الحد، وبمهنته كرجل أعمال يتاجر في "الجلود"، ولكنه بدا محايداً في مشاعره بطريقة مريبة، تشي بأن أباه هو صاحب مشروع الزواج وليس هو. لم أجر مفراً من جسّ نبض أمه "سناء" لأستجلي حقيقة موقف "حمادة" من مشروع الزواج هذا. صارحتني بوضوح تام بأنها لا تتحمل مسئولين هذه الزيجة، وهي لا تعرف من العقيم، ولا توجد أسباب واضحة لمشكلة عدم الإنجاب، وعليّ وحدي أن أتحمل مسئولية هذه المغامرة، لاسيما أن ابنها كسول جنسياً ولا تعرف سبباً لهذا الكسل. هكذا فتر حماسي، ولم يفتر حماس "طايل" لحظة واحدة، ظل يعيش على الأمل، تمني أن تطول حياته حتى تتحقق هذه الزيجة المترجاه. عاش في سباق بين الأمل وبين استمرار نشاط عضلة قلبه، التي يعتصرها بسرعة المصير الغامض لثروته الهائلة.

ظل "طايل" يعيش على الأمل. هكذا توطدت علاقته بأسرتي وأسرته. أصبحنا نقضي سوياً معظم شهور الصيف بالإسكندرية. نسترجع ذكريات حروب سيناء ووحدة مصر وسوريا وحرب اليمن والنكسة وحرب أكتوبر ومشاكل الانفتاح وحلم تداول السلطة. وجاء ذلك اليوم الصعب، عندما اتصل بي حمادة ليبلغني أن أباه يرقد في غرفة الإنعاش ويستشعر قرب النهاية، وأنا الوحيد الذي يريد أن يراني

على وجه السرعة. ذهبت إلى المستشفي على الفور. جلست بجوار سريره. جلست طويلاً حتى أفاق واستعاد وعيه. ارتاح لرؤيتي. اعترف لي بأنني الصديق الوحيد في حياته التي توشك على نهايتها. قال لي بصوت خافت وأنفاس متقطعة: "إنني أحسدك.. عشنا معاً زمن الهزائم والانتصارات وختمت حياتك بكتابة القصص والروايات والمسرحيات... وها أنت تبدو سعيداً راضيا عن نفسك.. وها أنا أجني حصاد هزائمي". أخذت أخفف عنه، قلت له بإشفاق: "لكل واحد فينا هزائمه وآلامه.. هناك من يحسدك على انتصاراتك". عاد يتكلم بصعوبة وهو يلهث: "أصبت بنوبة قلبية بالأمس عندما وصلني نبأ طلاق ابنتي "نوال".. "حمادة" يحقق ثروة ضخمة من تجارة الجلود ولا يجد من يرثها.. ابنتي "امتثال" تعاني من شلل مزمن في ساقيها... لم تفلح ثروتي الهائلة في إصلاح ما أفسده الدهر.. ها أنا أرحل وقد تركت هموماً ثقيلة لسناء". أخذت أخفف عنه بكل ما أوتيت من فصاحة أدبية.. قلت له إن هناك من يعاني من هموم هي أبشع وأفظع من همومه. عاد يقول لي على سبيل الاسترجاع: "قلت لك ذات يوم إنك مثل الصعيدي الذي جاء إلى القاهرة ودفع كل ما في جيبه ليشتري الترام.. أنا الآن ذلك الصعيدي الذي أشتري الترام". عاد يقول لي وهو يغالب في انتزاع بسمة من بين شفتيه: "هل مازلت تحلم بمشروع نهضة مصرية؟!"

لم تتوقف الشمس عن الطلوع في ذلك الصباح الذي فارق فيه "طايل" الحياة. سافرت إلى القاهرة لأشارك في جنازته. كان قد اشتري قبراً بمائة ألف جنيه في مقابر مدينة "٦ أكتوبر" الجديدة. كنت أحد الحاضرين القلة في سرادق العزاء، الذين يعدون على أصابع اليدين، فهو منقطع الصلة بالأقارب، ليس له أصدقاء، لم يحضر مندوب من رئاسة الجمهورية، حيث لم يكن عضواً فاعلاً في الحزب الوطني. تنفس تجار الأسمنت والحديد الصعداء، فقد فقدوا غريماً مزعجاً. كان "حمادة" يتقبل العزاء بعقل تجاري بارد.

علمت بعد ذلك بعامين أن حمادة تزوج من أخري ليفوز بالوريث، ولم يأت الوريث. سمعت أن "نوال" تزوجت مرة أخرى، وحدث الطلاق بعد شهور. دعتني "سناء" ، أنا وزوجتي، لزيارتها في فيلتها بالإسكندرية التي تربو قيمتها على كذا مليون جنيهاً، وجدناها تعيش وحيدة مع "جرو" ماليزي وديع" تطعمه أفخم الطعام، وينام في حجرها بارتياح. قالت لنا بظرفها المعهود وهي تربت على ظهره بحنان: "هذا نمر آسيوي يمنحني مشاعر لا أحصل عليها من أبنائي".

٨- سميرة زاهر

تعرفت عليها في مناسبة أليمة. ربطتني صلة حميمية بزوجها الشاعر المجدد "حسام عبد الكريم"، الذي انتشرت دواوينه على

امتداد الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وترجمت إلى سبع لغات أجنبية. وصلني نبأ موته الفاجع وهو عالق بكورنيش نيل القاهرة، عندما أصيب بنوبة قلبية حادة ومفاجئة، بعد اجتماع صاخب في شقة أحد أصدقاء عمره. تحول هذا الاجتماع إلى محاكمة وحشية، تدين حسام عبد الكريم بالخيانة العظمى للمشروع الوطني ورسالة الشعر، بعدما انتشر خبر ترجمة دار نشر إسرائيلية لدواوينه. مات "حسام"، واتضح بعد ذلك كذب هذا الخبر، ولم ينجح أحد من القتلة الغيورين من "حسام" في ملء الفراغ الشعري الذي تركه وراءه على قارعة كورنيش النيل. قالوا له في حيثيات المحاكمة إنهم هم الذين صنعوا نجوميته وشهرته من خلال تسخير النقاد ووسائل الإعلام ليكون رمزا لحرية التعبير المنشودة. قال لي صديق في سرادق العزاء بصوت خفيض وأثناء تلاوة القرآن: "لم تشتهر قصيدة واحدة من قصائد قاتليه مثلما اشتهرت قصائد "حسام عبد الكريم". سألته إن كانت قصائد "حسام" ستترجم إلى العبرية حقيقية؟ ، قال لي بيقين حاسم: "الصهاينة لفوا حبل المشنقة حول عنقه، وأصدقاء عمره شدوا الحبل".

بكيت طويلاً على "حسام". ترجمت بكائي في مقال حزين، نشرته صحيفة "الأخبار"، بعد حادث المنصة بعشرة أيام. حزنت على "حسام" أكثر مما حزنت على "أنور السادات". رتبت لندوة

حاشدة لإظهار أفضال "حسام" على الحركة الشعرية الحديثة، حضر لتغطيتها صحفياً صديقي الصحفي الشاب "مصطفي عبدون"، الذي قال لي في نهاية الندوة: "سميرة زاهر.. زوجة "حسام".. حضرت الندوة، وتريد أن تتعرف عليك، بعد أن أعجبت بمقالك في تأبين زوجها"، وطلب مني المشاركة في مجلس عشاء في فندق "سيسل" بمحطة الرمل، مع شعراء الإسكندرية.

كانت أول مرة ألتقي بسميرة زاهر. سيدة ناضجة جذابة ممتلئة الجسم، تفيض بحيوية لافتة، صدر نافر وبشرة بيضاء ساخنة وشعر رأس أسود قصير مصفوف بعناية كأنه تاج صغير، لا ينم حديثها عن ثقافة عميقة، رغم أنها تقدم برنامجاً تليفزيونياً ثقافيا. بدوت حذراً في التعامل معها حتى أتعرف على أفكارها. لاحظت أن الشاعر "أحمد بهاء" يتعامل معها بلا ضوابط وبتلقائية مثيرة للانتباه. كنت أعرف أنه رجل أعمال براجماتي عملي أكثر منه شاعراً، يوظف الهواية الشعرية لتحقيق المنافع الشخصية. أردت أن أستوضح منه ما غمض على في شخصية "سميرة"، فقال لي بلهجة خبير في شئون المرأة: "لا تشغل نفسك بأفكارها، حتى لا تعمي عن أنوثتها الطاغية ومشاعرها الملتهبة. عاد يقول لي في مناسبة أخرى: "كان حسام يحب فيها براءتها وطفولتها التي تصل إلى حد السذاجة، ولم يشغل نفسه بأفكارها المتواضعة".

أخذت ألتقي بها بانتظام في مناسبات شعرية وثقافية عامة في القاهرة والإسكندرية. جذبتني إليها عفويتها وتلقائيتها، دون التورط فيما هو أكثر من ذلك، تعاملت معها باعتبارها الظل الباقي من "حسام عبد الكريم"، الظل الحي المتبقي من عالمه الإبداعي المدهش. لاحظت أنها توليني اهتماما خاصاً لا أعرف دوافعه، وكلما بدوت حذراً ومنضبطاً كلما تمادت في الاقتراب منى، رغم أن الشائعات أخذت تسري ثم تنتشر عن وجود علاقة خاصة تربطها بالشاعر "أحمد بهاء". لم يمض عام حتى تحولت الإشاعات إلى واقع جري على الألسن وشواهد لا تقبل الإنكار. جمعتهما لقاءات خاصة معلنة في أماكن عامة مفتوحة دونما حرج وعلي مرأي الجميع. تطورت العلاقة فأخذا يجتمعان في غرف مغلقة في فنادق؟ خمسة نجوم؟ مثل هيلتون وشيراتون. هكذا لم تعد العلاقة خافية على أحد. رجل الأعمال الشاعر غير الموهوب يستثمر أمواله في مغامرات غرامية، ومع ذلك حرصت على تأكيد اهتمامها الشخصي بي. كنت أعرف أن بهاء متزوج وله ثلاثة أبناء. قتلني الفضول لمعرفة مصير هذه العلاقة التي اتخذت شكلاً معلناً ولم تعد خافية على الوسط الفني والأدبي، ولم يعد "بهاء" يخفي أمر العلاقة. انتهزت فرصة لقاء منفرد معه في كازينو "شانزليزيه" وسألته عن مصير علاقته بسميرة زاهر. قال لي بصراحة مذهلة: "سميرة امرأة طاغية الأنوثة وأنا أحبها بجنون.. انشغل "حسام عبد الكريم" عنها وتفرغ للشعر

فانفجرت أنوثتها الملتهبة معي فعرفت سحر الجنس وفحيح آهاته.. هي تريج الزواج مني بشرط أن أطلق زوجتي، وهذا مستحيل لأسباب كثيرة منها أن زوجتي تملك نصف ثروتي.. لم تقبل سميرة أن تكون زوجة ثانية في وجود الأولى". عندما سألته عن خاتمة المغامرة، قال لي بقلب ميت: "هي مغامرة مثل غيرها من المغامرات.. لا أظن أنها قادرة على إنهائها.. ابنها وبنتها يعرفان بأمر العلاقة، وأنا أتكفل بمصاريف رعايتهما.. هي تحب وتشترط، وأنا أحب وأعتذر عن شروطها". سألته إن هي قررت قطع العلاقة، قال لي ببرود قاتل: "عليها أن تتحمل عواقب الفضيحة، وعلي أن أسعي لمغامرة جديدة". قلت له بمثالية تثير الضحك: "وماذا عن "حسام عبد الكريم؟! ماذا عن أسطورة شاعر العروبة المجدد؟!" استغرق في الضحك وهو يطلب كأساً من الويسكي، ويرمقني بنظرة إشفاق ورثاء وهو يقول لي: "أنت تتحدث عن الأساطير، وأنا أعيش الواقع". نصحني بالتخلي عن مثاليتي حتى أصبح أديباً عالمياً، استوعب مدرسة "الحداثة" وما بعد الحداثة. قلت له بصراحة عارية حتى من ورقة التوت، وأنا أدرك أنه يتقبلها على عريها: "وهل أصبحت أنت شاعراً عالمياً باعتماد مدرسة الدولار والجنس؟!".

واصلت "سميرة" اقترابها مني، حتى أنني أصبحت ألتقيها في مقابلات منفردة في أماكن عامة. أخذت تحدثني عن أحوالها

الشخصية وتسألني عن حالي. خمنت أن علاقتها ببهاء أوشكت على النهاية، وهي تنوي فتح صفحة جديدة معي. هي تعرف أنني متزوج وعندي أبناء، فهل تتصور أنني سأطلق زوجتي من أجلها وأقبل ما لم يقبله بهاء؟.. لم يكن ذلك وارداً في خاطري. ثم إنني لا أقبل أن أضاجع امرأة كانت زوجة "لحسام عبد الكريم". دون ذلك الردى. حسام لم يمت في نظري. مازال وسيظل حياً في عقلي وقلبي. لو أنني ضاجعت زوجته بلا عقد، فقد أصدرت عليه حكم الإعدام في عقلي وقلبي. هكذا فكرت، ولكن الأمر لا يخلو من مشكلة، كيف أراعي خاطر "سميرة" التي تتقرب مني، وكيف أتجنب الاستسلام لأنوثتها الطاغية؟

وحان وقت تلك الأمسية الشعرية التي أقيمت خصيصاً للشاعر "أحمد بهاء" بكلية الآداب في المدرج الكبير الذي سمي باسم "حسام عبد الكريم". حضرت الأمسية بناء على دعوة رسمية من عميد الكلية. تحاملت على نفسي وأنا أسمع أشعار بهاء التقليدية الباهتة الخالية من أي تجديد أو مضمون يتحرش بالاستبداد أو الفساد. استفزني التصفيق الحاد للحاضرين، معظمهم يصفقون لأنهم يجب أن يصفقوا للضيف حتى لو كان ثقيلاً، وبعضهم يصفق ليؤكدوا أنهم استوعبوا ما سمعوه، وبعضهم محسوبون على كرم وسخاء "بهاء". انتهت الأمسية دون أن يتغير وجه العالم، وتحرك

بهاء وسط الحاضرين كنجم ساطع، تحفه هالة من نور لم أعرف مصدرها. حرص بهاء على دعوتي ضمن المدعوين لعشاء عام أقامه في فندق "شيراتون" بالمنتزة، لمن يعتبرون أنفسهم أنهم من عشاق شعره ومريديه، وهم يعرفون حجمه الطبيعي وهو يعرف ماذا يريدون. حرص في نهاية السهرة على الانفراد بي في سيارته بدعوي توصيلي إلى منزلي. كان الليل قد انتصف عندما صارحني بالقول تحت زخات المطر: "أنا أعرف أنك على علاقة بسميرة، وهذا يضايقني ويستفزني، وربما يدفعني إلى مضايقتك.. أنت تسرق مني صيداً ثميناً، وأنا لن أغفر لك هذه السرقة". فكرت قليلاً ثم قلت له بغضب محسوب: أصدقاء "حسام عبد الكريم" قتلوه للمرة الأولي على قارعة كورنيش النيل. وأنت قتلته للمرة الثانية باستباحة جسد زوجته.. وأنا لا أنوي أن أقتله للمرة الثالثة". ارتاح لمثاليتي التي لاقت هوي في نفسه، وقال لي بلهجة لا تخلو من تحذير: "أتمنى أن أصدقك". انتهزت فرصة توقف السيارة عند إشارة محطة "كامب شيزار"، التي غرقت في أمطار يناير، وفتحت باب السيارة ونزلت بسرعة دون أن أقرئه السلام.

مرت بضعة أسابيع قبل أن تدعوني "سميرة زاهر" إلى الشاليه الذي ورثته عن "حسام"، والقائم بحي الزهور بشاطئ "الهانوفيل". بدا واضحاً أن الدعوة شديدة الخصوصية ووراءها ما وراءها.

افترضت حسن النية، وقبلت الدعوة من باب الفضول، لاستجلاء حقيقة ما تفكر فيه، وما آلت إليه علاقتها ببهاء. فتحت لي سميرة بابا "الشاليه"، وهي ترتدي قميص نوم شفاف، يظهر كل مفاتن جسمها، التي تستعصي على المقاومة. انتفض بدني برغبة غريزية كاسحة، عندما لاحظت اهتزاز ثدييها وردفيها بإغراء مقصود ودعوة معلنة لا تقبل الشك، وهي تروح وتجيء بلا تحفظات. انتصب قوام "حسام عبد الكريم" ليقف حائلاً بيني وبين جسدها المائع الليّن. استدعيت إرادة خارقة لأقاوم الإغراء. لاحظت تماسكي وانضباطي، فوضعت زجاجة "الويسكى" وكأسين فوق المائدة، وأخذت تضع أطباق "المزة" بلا حساب. انتظرت طويلاً حتى بدا لها أنني تماسكت واستعدت هدوئي. قالت لي بتلميح ذكي: "ما المشكلة؟" قلت بلا تردد: "مازال "حسام" حياً في ذاكرتي وذاكرة محبيه". قالت بلهجة واقعية: "حسام عاش حياته كما أراد ثم مات... ومن حقي أن أعيش حياتي كما أريد ثم أموت. سألتها على سبيل الاستيضاح عن مصير علاقتها ببهاء. قالت لي ببساطة مستفزة: "بهاء يريد مني أن أكون عشيقة، ويرفض أن أكون زوجة له، وأنا أرفض أن أكون عشيقة". قلت لها بلهجة قاطعة: "ظروفي لا تسمح بأن أكون زوجاً لك". قالت بجرأة مفضوحة: "فلنجرب.. ربما تغير رأيك مع الوقت.. ربما تغريك أنوثتي". قلت لها إن "حسام" يقف بيني وبينك، فقالت بمزيد من الإغراء: "دعنا نعيش حياتنا حتى يموت "حسام"

في قلبك". لم أشأ أن أجرحها وأقول لها بأنني لا أقبل أن أكون بديلاً لبهاء في جسدها. انتهي اللقاء بانتصار لمثاليتي وهزيمة لشهوانيتها. توسلت إليها أن نصبح أصدقاء ولا نكون عشاقاً. نهضت بغضب يوحي أن اللقاء قد انتهى. صفعت الباب من خلفي كأنما هي صفعة على وجهي.

حكيت ما جري لصديقي الصحفي "مصطفي عبدون"، فاستغرق في الضحك وهو يتأمل ملامح وجهي كأنما يعيد قراءتها. قال لي بغيظ واستخفاف: "مثاليتك تثير الإشفاق وتدعو للسخرية منك.. واضح أنك لا تعيش في نهايات القرن العشرين.. لا تعرف ما يجري حولك.. لا أظن أنك ستصبح أديباً مرموقاً، يعي حقائق العصر والزمن.. بهاء الذي لا يعجبك أكثر منك شهرة وحضوراً في الوسط الأدبي.. أفق يا رجل من غيبوبتك".

جمعتني الصدقة بلقاء "سميرة زاهر" في مبني التليفزيون. عرضت على أن تجري معي عدة لقاءات في برنامجها الثقافي. شعرت أنها تتعامل معي بطريقة سيدة أعمال توظف برنامجها الثقافي لأغراض إعلامية بعيدة عن ثقافة موضوعية، فلم أتحمس لعرضها المغري لغيري. علمت بعد ذلك أنها قطعت صلتها "بأحمد بهاء" بعد أن تحولت العلاقة إلى فضائح وتشهير متبادل. انقطعت صلتي بها، فلم أعرف إن كانت قد أقامت علاقات أخري أم أنها انشغلت

في رعاية أبنائها. علمت بعد ذلك أن دواوين "أحمد بهاء" قد ترجمت إلى اللغة العبرية، ثم ترجمت إلى سبع لغات أوروبية، وأصبح شاعراً يشار إليه بالبنان.

بعد ذلك بسنوات، فوجئت بصديقي "مصطفي عبدون" ينعي إلى وفاة "سميرة زاهر"، وفاة طبيعية فوق سريرها. قلت له بحزن وإشفاق: "ماتت "سميرة زاهر" ولم يمت "حسام عبد الكريم". أشاح عني بوجهه وهو يقول بضيق: "دعك عني من مثاليتك الجوفاء.. مات "حسام" وماتت "سميرة"، ولا أعرف إن كنت أنت حياً أم ميتاً.. أبحث عمن يترجم لك أعمالك باللغات الأوروبية والعبرية".

٩- عبد النبي همام

لم أكن أري "عبد النبي همام" إلا في الإجازة الصيفية، التي كنت أقضيها في القرية مع أسرتي بعد نهاية كل عام دراسي. كنت أمر بالمرحلة الثانوية من تعليمي، ولم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمري، عندما كنت أراه يجلس وحيداً على حافة "البركة" المحفوفة بنبات "الغاب"، التي تقع ما بين القرية والحقول. كانت أشبه بمستنقع كبير معزول، تفرخ مياهها الراكدة أفواجاً لا تحصي من الناموس المتوحش، ومزرعة عمومية مشاع لتربية الأسماك يستفيد منها كل أهل القرية. كان مجلس عبد النبي يحتل موقعاً محدداً على حافة "البركة"، سمي بعد ذلك باسمه (مطرح عبد النبي)، يتربع فيه

بعد كل صلاة عصر حتى آذان العشاء، ونادراً ما يتطفل على مجلسه أحد المتعلمين من القرية. لم يكن وحيداً بالمعني الحرفي للكلمة، فدائماً ما يحمل كتاباً وصحيفة، ويستغرق وقته تماماً في القراءة، واستنشاق الأكسجين النقي للمزارع، وتأمل صفحة الماء الساكن.

كان المتخرج الوحيد لقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب / جامعة القاهرة، مما جعله موضوع احترام وتقدير أهل القرية، وقد عمل مدرسا للغة الإنجليزية بمدرسة "الفسطاط" بحي "فم الخليج" بالقاهرة، حيث أقام في شقة مستأجرة في هذا الحي، ويقضي إجازته الصيفية بالقرية مثل كل المتغربين من المدرسين.

كنت أراه أو أمر بجانبه ولا أجرؤ على الاقتراب منه. يكاد يكون منقطع الصلة بكل أهل القرية، لا يتبسط مع أحد، ولا أحد يجرؤ على اقتحامه. بدا كلغز غامض عصي على الفك والتفسير. كل ما أعرفه عنه أن أباه تاجر أقطان كبير، حقق من تجارته أرباحاً جعلته ثالث أغنياء القرية، ونجح في انتزاع العمودية؟ بالانتخاب الحر المباشر؟ من "ملاك عبد المسيح"، كبير الأسرة المسيحية الوحيدة في القرية. وكان وفدياً متعصباً، يتمتع بعلاقة سيئة مع رموز "الإخوان المسلمين"، آنذاك الوقت، الوفد الذي سحب البساط من تحت أقدام "الإخوان المسلمين" قبل قيام ثورة "يوليو" ١٩٥٢.

الوحيد الذي استطاع أن يتقرب من "عبد النبي همام" ويصاحبه هو أخي "هشام"، الذي كان مولعاً بقراءة الروايات والمسرحيات، ويحلم بأن يصبح أديباً وصحفيا، وهكذا جمعته بالأستاذ "عبد النبي" ميولاً ثقافية مشتركة. كان هناك أيضاً سبباً آخر لهذه الصحبة. كان "عبد النبي" يري في الأستاذ "مرتضى" (والد هشام ووالدي) نموذجاً يحتذي لشخصيه قوية مرموقة مهيبة الجانب، لا يدخل بيته، الذي هو أشبه بفيلا أنيقة ذات حديقة، إلا صفوة المتعلمين ورؤوس العائلات، وهو خريج كلية "دار العلوم"، ويعيش بالإسكندرية، حيث يعمل مدرساً بمدرسة الأميرة "فايزة" الثانوية، وهو يتصف بالحصافة والرزانة والثقافة العربية الأصيلة والسلوكيات الراقية لأهل البندر، لم يكن "عبدالنبي" قد دخل بيتنا مرة واحدة، ولا تحدث مع أبي في مناسبة، كان يراه فقط عندما يزور أباه في منزله، أو يضمه اجتماع في "الدوار"، ويستمتع بحديث "مرتضى" الشيق وحواراته الذكية. لم يكن "عبد النبي" متزوجاً، وربما كان يتمني الزواج من أختي "نعمات"، وقد علمت بعد ذلك أنه كان يخشي من تبعات الفوارق الحضارية بين الأسرتين.

ومع مرور بعض الوقت، وذات عصر حلو النسمات، قادني أخي هشام إلى مجلس "عبد النبي همام" على حافة "البركة". ألقينا السلام، فرحب بنا وجلسنا. كنت سعيداً بالجلوس في حضرة هذا

المدرس اللغز. استغرقت في تأمل ملامح وجهه عن قرب ولأول مرة. له وجه أبيض ناعم مستدير، شعر أسود قصير، ينحسر عن صلعة صغيرة في مقدمة الرأس، عينان لامعتان ثاقبتان خلف نظارة سميكة، تشعان بالذكاء وقوة الملاحظة، تكشفان عن شخصية هادئة وآمنة، تدعوان إلى الثقة وشعور مُجالسه بالأمان والارتياح. له صوت رخيم ذو رنين خاص، يقترب من رنين صوت "محمد عبد الوهاب". يشعرك بأن عنده الكثير مما يقال ولكنه لا يقول كثيراً، مجرد جملة أو تعليق من آن لآخر، أو ضحكة مترعة بالبهجة والسرور، تشيع الألفة كأنما يعيش حياة خالية من أية متاعب.

كان أخي هشام هو المتحدث بلا انقطاع، يحدثه عما يقرأ "عبد النبي" من روايات ومسرحيات غربية، ودراسات لكبار المفكرين والأدباء الأوروبيين. فهمت من سياق الحديث أن "عبد النبي" مغرم بالثقافة الغربية، وهو ابن "كفر الأكرم" مركز قويسنا محافظة المنوفية، ويقرأ ترجمات هذه الثقافة في سلسلة روايات الهلال ومجلة "كاتبي" لصاحبها "حلمي سلام" وما يكتبه "سلامة موسى" عن فلاسفة عصر النهضة والتنوير والعصر الحديث تحت عنوان "هؤلاء علموني". بدا واضحا أن "عبد النبي" تأثر كثيراً بما تعلمه من قسم اللغة الإنجليزية بالجامعة، وتعذر عليه أن يتفاعل مع مثقفي القرية ممن يحملون شهادات الأزهر وكلية دار العلوم وما شابهها.لم

تكن له؟ بحكم ثقافته؟ أدني صلة بالفلاحين والتجار والحرفيين. بدا لي بقعة أوروبية غربية تعيش على حافة "بركة"كفر الأكرم. تواصلت لقاءاتي معه بصحبة هشام، وأعترف بأنني تأثرت كثيراً بما سمعته منه عن "شكسبير" و"تشيكوف" و"سارتر" و"هنريك إبس"، وما أسمعه مرة واحدة يتحدث عن "كارل ماركس" أو "إنجلز" أو "لينين". انبهرت كثيراً بما قاله لي عن "سيجموند فرويد" و"ونج". كان بالنسبة لي النافذة الأولي على الثقافة الغربية، وسط ذباب وناموس وسحالي وفئران القرية، وأنا أراقب الفلاحين على جسر الترعة، يركبون الحمير ويسحبون البقر والجاموس وينامون بجوار حظائر البهائم، ويصنعون من روث البهائم وقود الأفران البدائية.

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. دخلت الكلية الحربية، وانقطعت صلتي تقريباً بعالم القرية. تابعت باهتمام قانون الإصلاح الزراعي وإلغاء الأحزاب وقضية جماعة الإخوان المسلمين وتأميم قناة السويس. لم يغب "عبدالنبي" عن ذاكرتي طوال هذه السنوات. كنت أري فيه شخصية غامضة، لم أعثر لها على مفاتيح. بدا لي أنه يعيش في عالم خاص مقفل، يستغني به عن الناس، ولا يترجمه في موقف سياسي أو رسالة اجتماعية، عالم ذاتي مقفل، يتمتع بوجه جميل، وصوت رخيم، ويتزين بثقافة هي من باب التجمل والوجاهة والهواية والإعجاب بذات نرجسية. هكذا وصفه لي صديقي القروي "عبد

القادر سليمان"، خريج مدرسة المعلمين ثم كلية الحقوق بالانتساب. سألت أخي هشام عن أخباره ذات مرة. علمت أن أباه قد خسر تجارته في القطن، واضطر لبيع الكثير من أفدنته، وفقد منصب العمودية إلى الأبد، واستغني عن "وفديته" بعد إلغاء الحزب والأحزاب. هكذا لم يعد وفديا ولم يجد مصلحة في أن يصبح ثورياً، ومات فقيراً محزوناً. عدت بعد سنوات أسأل هشام عن أخبار "عبد النبي". أفهمني أنه يكره ثورة يوليو كراهية التحريم، ويعتبرها سبب كل المصائب التي حلت بمصر والعرب والشرق الأوسط على وجه العموم. علمت أنه يعيش في ضائقة مادية حادة، وهو يفكر في الزواج؟ رغم بلوغه الأربعين؟ ولكنه لا يجد المال الكافي ولا المرأة المناسبة.

أثارني فضول جامح لرؤيته ومعرفة أحواله وجهاً لوجه، فقررت زيارته في بيته بالقاهرة في حي "فم الخليج"، وكنت أعمل بالقاهرة بعد انحسار العدوان الثلاثي ١٩٥٦. رحب بي ثم تذاكرنا أحوال القرية، ثم قلت له بصراحة لم أتعودها معه: "تم تحقيق الإصلاح الزراعي والاستقلال وتأميم قناة السويس واستعادة البنوك والمصالح الأجنبية، فهل مازلت معارضاً للثورة؟". تحكم في توتره بصعوبة وهو يقول: "لا فائدة من هذه المكاسب بدون إرادة شعبية منظمة تحميها.. الحرية هي الضمان الحقيقي للنهضة والتقدم.. لا قيمة

لوطن يتحول إلى سجن كبير، نتزود فيه بالطعام والكساء ومسكن بسيط". عندما قلت له بأننا لسنا مجتمعاً شيوعياً، سألني باستنكار: "وما الفرق بين الحكم الشيوعي والحكم العسكري؟". لاحظت فوق مكتبه بعض الكتب بعناوين إنجليزية، وبضعة أوراق مكتوبة فقلت له بمودة

- توقعت أن تكون كاتباً أو ناقداً.. هل تفكر في ذلك؟

قال لي بنغمة منتقدة للواقع.

- الكاتب يحتاج لوقود الحرية... هذه الكلمة أصبحت سيئة السمعة.. أصحابها يتصفون الآن بالرجعية وشياطين الثورة المضادة.

عدت أقول له بتشجيع، إنني أتوقع له أن يحظي بمنصب كبير في وزارة التعليم، كأن يصبح مديراً لمنطقة تعليمية أو وكيلاً للوزارة. استغرق في الضحك بصوت جهوري منغم، وعاد يقول لي: "المناصب الإدارية الآن تدين صاحبها ولا تشرفه.. أصحاب الكفاءة والخبرة ليسوا مطلوبين الآن.. نحن في زمن أهل الثقة.. وزير التعليم رجل عسكري".

أيقنت أن "عبد النبي همام" اعتزل الحياة والأدوار، يواصل حياته داخل كتب صماء، ويحمل في رأسه خلاصة مكتبة غنية بالأفكار، تفيد كثيرا من يطلع عليها من أقرب أصدقائه ومن

المقربين. حرصت على زيارته بانتظام، لأستمتع بما أسمعه منه من أفكار وآراء لا تخلو من الإثارة والحيوية. عندما حكيت لصديقي "عبد القادر سليمان" ما كنت أسمعه من "عبد النبي" قال لي برؤية واضحة: "عبد النبي صنع لنفسه سجناً رائعاً من الأفكار، لم ينجح في اختراقه ليطل على الحياة.. مدرس متواضع، غير متزوج، ليس له أبناء، ليس له أصدقاء حقيقيون، ليس له مستقبل، لا يتحمس للتدين، يتعبد ليل نهار أمام صنم زائف صنعه لذاته".عندما حدثت نكسة يونيو ١٩٦٧ حرصت على لقاء "عبد النبي". قال لي بارتياح: "تحطم صنم الثورة.. نحتاج لوقت طويل حتى يستعيد الشعب حريته". عندما حدث نصر أكتوبر ١٩٧٣، ثم تبعه الانفتاح والمنابر وتعدد الأحزاب، لم يتخل "عبد النبي" عن تشاؤمه وقال لي بلهجة مثقف بعيد عن أي انتماء: "هذه تمثيلية حرية خائبة، تجري تحت غطاء عسكري لم يفقد سطوته".

عندما تم توقيع اتفاقية "كامب ديفيد" عام ١٩٧٩، انشغلت بضعة شهور قبل أن أتوجه بلهفة إلى بيت "عبد النبي" لأتعرف على رأيه في هذه المعاهدة التي تعددت بشأنها المواقف والآراء. لم أجده في بيته. تأملت طويلاً ذلك القفل الموصد به الباب. سألت الجيران. سألت بعض أصدقائه المقربين. قال لي أحدهم: "أختفي فجأة.. ولا أحد يعرف مكانه".

حرصت على مداومة الاتصال بصديقي "عبد القادر سليمان" لأعرف مصير "عبد النبي همام". كنت أعرف أن "عبد القادر" يتمتع بصلات قوية على أعلي المستويات. كاد يقتلني الفضول. قال لي أحد أقاربي بالقرية: "هو لم يمت بالتأكيد.. لو أنه مات لدفنت جثته هنا بالقرية". فوجئت بتليفون من "عبد القادر سليمان" يطلب مقابلتي في التو والحال. لم أطق صبراً وأنا جالس معه في صالون بيته: "مؤكد أنك تعرف شيئاً عن أخبار "عبد النبي همام". فهمت أنه طلبني ليشبع فضولي. قال لي بلهجة ضابط مباحث: "عبد النبي يعمل الآن مستشاراً ثقافياً للعقيد "معمر القذافي".. أصبح محل ثقته بامتياز.. يتقاضي أجراً خيالياً بالدولار.. لابد أن عنده ما يقدمه للأخ الزعيم". توقف عقلي أمام هذا الخبر الصاعقة. طال صمتي قبل أن أسأله: "ماذا عنده ليقدمه للأخ العقيد؟" أجابني بلهجة لا تخلو من رموز وايحاءات.

– العقيد يرفض "كامب ديفيد" وعلاقته سيئة بأمريكا وإسرائيل، وغير راض عن صعود التيار الإسلامي في مصر، ويعتقد أن التيار يحاول مد نفوذه إلى ليبيا.

– العقيد يؤمن بالقومية العربية، وهو الابن البار لجمال عبد الناصر، كما يقولون.. هل أصبح "عبد النبي" ناصرياً؟!.

– عبد النبي يصفي حسابات قديمة مع ثورة يوليو.. الثورة حرمت أباه من تجارة القطن الرابحة، ومن العمودية، ومن نزعته الوفدية.. هو يستثمر الآن معرفته الذكية بكل ما يجري في مصر، كما يراه من منظور ثقافته الغربية.

– كيف تأكدت لديك هذه الفكرة؟

– سؤال حساس، أترك لذكائك الإجابة عليه.

مر عامان. فوجئ العالم باغتيال السادات في حادث "المنصة" ١٩٨١. حرصت على الاستماع طويلاً "لعبد القادر سليمان" عن ظروف الحادث وملابساته وأبعاده. قال لي باقتضاب بعد أن أرهقته بالأسئلة والاستفسارات: "السادات قام بما هو مطلوب منه.. استنفد أغراضه..ظهرت بوادر متاعب وأزمات.. كان لابد أن يرحل". حانت فرصة مناسبة لأسأله عن أخبار "عبد النبي همام". كنت قد تأكدت أنه يملك شبكة علاقات ومعلومات غير عادية، لا تتوفر إلا لشخص يعمل في جهاز معلومات. قال لي ببساطة مدهشة، وبثقة العالم ببواطن الأمور: "تزوج عبد النبي من أرملة غامضة النوايا والجذور.. لم ينجب منها أبناء.. تعيش في الفيلا التي اشتراها في حي "الزمالك" بالقاهرة. اكتظ حسابه في أحد بنوك "سويسرا" بملايين الدولارات.. مازال يواصل نجاحه كمستشار للأخ العقيد".

بدت فرصة لا تعوض، عندما كنت أقضي أجازة في القرية، فعلمت أن "عبد النبي" موجود في القرية، يستعيد ذكريات "البركة" وأحلام الصبا وزقزقة العصافير ونعيق الغربان. استقبلني بحياد خال من الرفض أو التكريم. لم أفز بأية معلومة أو تعليق. نظر في ساعته ليوحي لي بأنه ينهي اللقاء. لم أجد مفراً من سؤال مباشر قبل أن أنصرف:

- ما أخبارك؟

- ما أخبارك أنت؟

- أسألك عن أخبارك.

- ليس عندي أخبار.

أدركت أن علاقتي انتهت بزميل القرية الذي لم يكن صديقاً ولو مرة واحدة. انقضت ثلاثة أعوام، قبل أن أسمع من "عبد القادر" أن عبد النبي رحل عن دنيانا، ودفن في مقابر زوجته التي لم تنجب له وريثاً، وورثت "فيلا" الزمالك وملايين الدولارات في أحد بنوك "سويسرا"، ولم يعد يذكره أحد بخير أو شر.

قال لي عبد القادر بلهجة ذات مغزي

- لم يبق منه شيء.

قلت له بحياد.

– بل بقي منه ما عرفه؟ في وقت مبكر؟ من جلسوا معه في الشباب الغابر في القرية "وفم الخليج"، عن المفكرين والكتاب الغربيين الذي أثروا الحضارة الإنسانية.

١٠- حمدان رجب

تعرفت عليه عندما خطبت الآنسة التي أصبحت زوجتي فيما بعد. كان ضمن المستقبلين لي في يوم الخطبة في صيف عام ١٩٦٤. قالت لي من تقدمت لخطبتها: "حمدان.. أخي". علمت أنه يعمل بشركة مصر للطيران في مكتبها بحي "الأوبرا" بالقاهرة. بدا لي وسيما ممشوق القدام، أنيق الملبس، ملبس مستورد في زمن الاشتراكية، له وجه أبيض مستطيل يتمتع بجاذبية خاصة. عيناه تنطقان بذكاء حاد من خلف نظارة طبية، يتصف بهدوء عجيب ورقة بالغة وتعليقات متقضبة خجولة، شعر رأسه أسود مفروق ومقصوص بعناية.

صحبني مع خطيبتي (أخته) وأنا أشتري لها الشبكة. أعجبت خطيبتي بخاتم بلاتيني مرصع بالماس. كان ما في جيبي يقل قليلاً عن ثمن الخاتم. صمم "حمدان" على استكمال ثمن الخاتم برغم اعتراضي الشديد. رفض فيما بعد أن يسترد ما دفعه، ورجاني أن

أتقبله كهدية متواضعة منه. بدا ودوداً ومحباً بغير حدود. هكذا بدأت علاقة النسب تقترب حثيثاً من علاقة صداقة وتوافق. كنت أعمل بالقاهرة أثناء فترة الخطوبة، وكانت خطيبتي تعيش بالإسكندرية. بدت الظروف مناسبة لأتردد على "حمدان" في مكتبه بمقر الشركة في حي "الأوبرا". رأيت من المناسب أن أدعوه لتناول الغداء معي في شقتي المتواضعة بحي "الدقي". شقة شاب أعزب، مطلة على سطح العمارة، غرفة نوم وصالة مفروشة بطاقم مقاعد "أسيوطي"، كنبة وثلاثة كراسي، مطبخ به عدد محدود من أدوات الطعام وبوتاجاز "مصانع حربية" وثلاجة أمريكاني صغيرة مصنعة في مصر. قبل "حمدان" دعوتي. سلقت فرخة، سويت حلة أرز، حمرت كمية لا بأس بها من البطاطس، اشتريت كيلو موز. حضر حمدان. قدمت له طبق شوربة ونصف فرخة، دعوته لأخذ ما يكفيه من الأرز والبطاطس. شعرت أنه يعاني من حرج بالغ، ويتردد في تناول الطعام، بدا مضطراً لتناول أقل القليل من الطعام. خمنت أنه رجل خجول ويتصف بأدب خال من العفوية والتلقائية. لم أفهم سر عزوفه عن الطعام إلا عندما دعاني لتناول الغداء في فندق الأندلس "أربع نجوم" المجاور لمكتبه، والذي يقيم فيه على نفقة الشركة. أدركت أنه يعيش في مستوي راق. وحياة مترفة سخية، ولم يكن قادراً على تقبل مائدتي البسيطة المتواضعة في شقتي. أنا الذي بدأت أشعر بالخجل والحرج الذي كان يصيبني بغصة كلما تذكرت ما جري وكان.

مضت السنوات. تزوجت أخته "همت". أنجبت ابني أكرم.
حّل عام ١٩٦٧ تم إغلاق خليج العقبة وإعلان حالة التعبئة. انتقلت بوحدتي من القاهرة إلى العريش. قامت الحرب في الخامس من يونيو. تم تدمير قواتنا الجوية على الأرض. عدت مع بعض أفراد وحدتي إلى القاهرة سيراً على أقدام حافية وبدون سلاح. التقيت بعد ذلك مع "حمدان" في مناسبة عائلية. بدا حزيناً مهموماً مكسور الخاطر. أنكر أن تكون هذه الكارثة هي نهاية ثورة يوليو. عاد يقول لي بمنتهي الحزن والأسى: "نحن أبناء هذه الثورة، وهذه الهزيمة هي هزيمة لجيلنا وللعروبة وللاشتراكية.. نحن نواجه مستقبلاً مظلماً".
مرت شهور قليلة. انتقلت بوحدتي.. بعد إعادة تشكيلها. إلى موقع حصين غرب قناة السويس. التقيت بحمدان في إحدي إجازاتي الميدانية. لم يكن قد استبعد بعد مشاعر التشاؤم والإحباط. قلت له بثقة ويقين: "ثم إعادة بناء القوات المسلحة ومؤسسات الدولة.. أغرقنا المدمرة "إيلات". خضنا معركة "رأس العش".. نقوم الآن بحرب استنزاف لقوات العدو في سيناء.. الثورة تعيد تصحيح الأوضاع". بدأ حمدان يستعيد ثقته بنفسه وبقدرة مصر على استعادة دورها القيادي، لولا أنه أصيب بصدمة مروعة، عندما سمع بوفاة "جمال عبد الناصر". لم يستطع أن يفيق من هذه الصدمة إلا بعد وقت طويل. كان ناصرياً حتى النخاع.

حل عام ١٩٧٢. تم تعيين "حمدان" مديراً لمكتب شركة مصر للطيران في "كمبالا" عاصمة "أوغندا". انقطعت صلتي به بعض الوقت. كنت قد أنجبت ابنتي "زاهية". دعا زوجتي وابني وابنتي لزيارة "كمبالا". عادت أسرتي من هذه الزيارة السياحية البديعة. بذكريات ممتعة لا تنسى. صحبهم "حمدان"، داخل سيارة مصفحة، في جولة مثيرة داخل غابات "كمبالا". لم تنس أسرتي الأسود والنمور والفيلة الذين كانوا يتحرشون بالسيارة المصفحة. حكت لي زوجتي.. بعد عودتها عن العلاقة الغرامية الملتهبة بين "حمدان" وسكرتيرته الإيرلندية "جان"، التي تقطن في جزيرة "إيرلندية" صغيرة وفقيرة، وهاجرت لتعمل في "أوغندا". علمت من "حمدان" في إحدي إجازاته إلى مصر، أنه متردد في الزواج من "جان" بحكم تدينه، وبحكم وظيفته الحساسة، ومع ذلك لا يستطيع أن يقاوم إلحاحها ومطاردتها العنيدة له بالليل والنهار. أدركت أن "جان" سوف تنجح في النهاية في الفوز بحمدان زوجاً لها، بحكم طبيعته الإنسانية الرقيقة، التي لا تستطيع مقاومة الضغوط العاطفية. وهذا ما حدث بالفعل، رغم نصيحة أمه له بالتريث ومراجعة نفسه، والاستغراق في الصلاة وقراءة القرآن وتكرار عمل "الاستخارة".

وحان موعد الحدث الذي قلب حياة "حمدان" رأساً على عقب، تغيرت بسببه المصائر والمقادير. كان قد اضطر للبقاء في

مكتبه حتى منتصف الليل، لينجز الكثير من الأعمال الملحة العاجلة، قبل أن يستقل سيارته للعودة إلى منزله. بدت العاصمة "كمبالا" شبه مظلمة، حتى أنه لم يعد يميز الطريق إلى منزله. اضطر للانتقال من طريق إلى طريق دون أن يعرف الوجهة. وجد نفسه في النهاية في قلب صحراء مترامية. لم يعد هناك مفر من مواصلة الطريق للعثور على أي مخرج. لاحظ وجود بعض الأضواء الخافتة. اقترب منها بحذر. اكتشف بخبرته وجود بعض ممرات طائرات. وقع بصره على بعض طائرات حربية مرسوم عليها نجمة "إسرائيل". لاحظ وجود بعض السيارات العسكرية، مرسوم عليها نفس النجمة. أصيب بحالة من الشلل قبل أن يستوقفه جندي أجنبي غريب، ليست له سحنة أوغندية، وأخذ يستجوبه عن وجهته. أبلغه بأنه ضل الطريق، فأمره بالعودة من حيث أتى، عاد حمدان بسيارته هائماً على وجهه، موزعاً بين الطرقات. اضطر للتوقف في مكان غير معروف حتى تطلع الشمس. وما إن طلعت الشمس حتى تمكن بصعوبة من العودة إلى بيته. ارتمي فوق السرير ليفوز بنوم عزيز ويستعيد عقله، ليفسر ما رآه ويفكر فيما يمكن أن يفعله. هذا ما حكاه لي، والبقية تأتي.

كان قد سمع عن تهديد "إسرائيل" بضرب السد العالي. ضمّن أن هناك علاقة ما بين هذا التهديد وبين ما رآه. ضربة جوية من موقع قريب في أوغندا يضمن تحقيق الهدف، ويتجنب اعتراض المقاتلات

المصرية والدفاع الجوى. اتجه من فوره إلى السفارة المصرية. التقي بالسفير وحكي له ما رآه. أحاله السفير إلى الملحق العسكري، الذي صحب "حمدان" إلى مكان قريب من الموقع الذي شاهده. تبين صحة استنتاج "حمدان"، الذي أصبح على صلة وثيقة بالسفارة، التي كلفته بالإبلاغ عن كل ما يراه ويلاحظه متعلقاً بهذا الموضوع. قامت مصر بجهود مكثفة، ترتب عليها إلغاء القاعدة الجوية التي كانت "إسرائيل" تنوي إنشاءها في أوغندا. هكذا أصبح "حمدان" شخصية مرموقة، ذات صلات قوية وعديدة بكبار المسؤولين في مصر. لم ترتح إدارة شركة الطيران لهذه الصلات، بل اعتبرتها مصدر قلق وإزعاج. وبحكم المنافسات المهنية، لم يكن مطلوباً أن يصبح "حمدان" شخصية هامة وذات ثقل. هكذا تقرر نقله من مكتب الشركة في أوغندا، ليبقي في إدارة الشركة بلا عمل وبلا مكتب وتحت رقابة مشددة، وأصبحت زوجته "جان" الأيرلندية نقطة ضعف يمكن استغلالها. كان قد أنجب ابنه "تامر"، وقد ساءت أحواله المادية، حتى أنه لم يعد قادراً على تحمل أعباء المعيشة في حي "المعادي". اضطرت زوجته للعمل بالمدرسة الأمريكية بالمعادى، وحصلت على مرتب كبير بالدولار، وأصبحت تعول الأسرة بلا شريك حقيقي. قرر حمدان تحقيق بعض التوازن العائلي بالمشاركة في المهام المنزلية، مثل غسيل الأطباق والحلل وتشغيل الغسالة ونشر الملابس وتنظيف الأثاث ورعاية "تامر". استمر هذا الحال

سنوات طويلة، حتى ضاقت "جان" بهذه الحياة، وأصبحت فوق احتمالها، لاسيما بعد أن تورطت في إنجاب الابنة "داليا" وسط هذه الظروف القاسية. وصلت علاقة "حمدان" بـ"جان" إلى أسوأ أحوالها، ويمكن القول بأنه لم تعد هناك علاقة بأي شكل من الأشكال. لم يعد يمسك يدها أو يقبلها أو يحتضنها أو يصحبها إلى كازينو أو حديقة. وقد تحولت العلاقة مع الوقت إلى علاقة عداء ومخاصمة وشجار وغياب مشاعر الأبوة والأمومة حيال الأبناء.

وحانت فرص للخلاص من المحنة. تغيرت قيادات الشركة. نجح "حمدان" في مد جسور التواصل مع القيادة الجديدة. صدر قرار بتعيينه مديراً لمكتب الشركة في "أثينا" باليونان بعد حدوث مخالفات جسيمة بالمكتب، أدت إلى تهرب الموظفين من شغل إدارة هذا المكتب. قبل "حمدان" المغامرة. إما أن يفشل، ولن يخسر شيئاً، وإما أن ينجح فيكون قد خرج من ثقب إبرة. وتحققت المفاجأة. نجح نجاحاً منقطع النظير. تم تكليفه بمهام حساسة مع بعض المسئولين، وهكذا استعاد وضعه المادي والمعنوي بامتياز، ولم يشأ أن يصحب معه أسرته إلى "أثينا"، بعد أن استقر أبناؤه في مدرسة بالمعادى، وفازت جان بوضع مرموق ودخل مضاعف في المدرسة الأمريكية.

حدث بعد عامين ما لم يكن في الحسبان. وقعت سكرتيرته الحسناء في غرامه. كانت "ماري" تنتمي لأسرة "يونانية"، عاشت في مصر، أباً عن جد، أيام استقرار الجالية اليونانية في الإسكندرية منذ زمن طويل، التي هاجرت معظم عوائلها بعد قيام الثورة. وقع الفوران العاطفي والمشاعر الملتهبة بلا حساب والفهم المتبادل واللغة السرية المشتركة. شعر حمدان بأنه يختار، لأول مرة في حياته، المرأة التي يرغبها، التي خلقت لتصبح النصف الآخر الذي خلق من أجله، مثلما شعرت "مارى" بنفس الشعور والإحساس. اكتشفت "جان" التحول الواضح في مشاعر "حمدان"، خلال إجازاته الدورية إلى مصر. أصبح يغدق عليها بلا حساب وينأي عنها بمشاعره. رصدت عدة مكالمات بينه وبين "ماري". انكشف لها السر المكتوم. سافرت خصيصاً إلى "أثينا". جمعت المعلومات اللازمة وتفاصيل قصة الحب التي جرت بين زوجها و"ماري". عادت إلى المعادي وقد اتخذت قرارها الحاسم. حزمت حقائبها وجمعت كل ما هو غال وثمين. ركبت الطائرة المتجهة إلى "أيرلندا"، لتعود إلى موطنها ومعها "تامر"، و"داليا"، وقد قررت خلع "حمدان" و"مصر" إلى غير رجعة، مثلما قررت خلع إسلامها والعودة إلى الكاثولويكية، ديانتها الأصلية.

عـاد "حمـدان" إلـى مصـر ليكتشـف هـرب "جـان" مـع الولـد والبنت. شعر براحة خفية لخلاصه من "جان". لم يشعر بقلق حيال "تامر" الذي كان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره. شعر بفزع مروع على مصير ابنته "داليا" التي لـم تكمـل الخامسـة مـن عمرهـا، التي اكتشـف أنـه يحبهـا بجنـون، وقـد غيبـت الأزمـات المتلاحقـة هـذا الحب. استيقظت عاطفته الدينية كمارد عملاق سد عليه كل طرق النجاة. تخيل ماذا يكون مصير "داليا" وهي تعيش في مجتمع غربي متحرر من الالتزامات الدينية. عجز عن مقاومة حالة مستحوذة من الهلع. فكر في قتل "جان" واستعادة "تامر" و"داليا". بدت فكرة خيالية غير قابلة للتحقيق. رفع قضية على "جان" لاستعادة أبنائه. خسر القضية أمام محكمة بريطانية. رفض فكرة الزواج من "ماري". خشـي أن يتسـبب هـذا الـزواج فـي ضـياع الفرصـة، أقـل فرصـة، فـي اسـتعادة أبنائـه. خيّـر نفسـه بـين "مـاري" و"داليـا"، فاختـار "داليـا". استخدم وسيطاً ليتصالح مع "جان". فشل مدير مكتب الشركة في "لندن" في تحقيق التصالح. حرصت "ماري" على مساندة "حمدان" بصرف النظر عن مصير العلاقة. استقال من مكتب أثينا وعاد إلى القاهرة، حتى لا يضعف أمام "ماري"، وحتي يتفرغ لاستعادة "داليا" مهما كلفته المحاولة.

أصبح على مدي عام في أسوأ حالاته النفسية. بدا أمام الجميع أنه حطام إنسان وقال لي في لقاء يشوبه الأمل والعذاب: "تحولت حياتي إلى سلسلة من الهزائم والأخطاء، بعضها لا ذنب لي فيها، وبعضها من صنع يدي.. الرب غير راض عني.. يبدو أنني أغضبت الله.. ليس أمامي سوى الصلاة والدعاء".. بدأ يحس بأوجاع مثقلة في جميع أنحاء جسمه. زادت الأوجاع. اكتشف الطبيب أنه يعاني من سرطان النخاع. استسلم للعلاج الكيماوي وجلسات أشعة الليزر. أصبحت ماري هي الأم والأب والقلب الحنون. سقط شعر رأسه. تحول بعد عام ونصف إلى هيكل عظمي عاجز عن الحراك. انتقل إلى مستشفي بلندن للعلاج الميئوس منه. توسل إلى "جان" في مكالمة تليفونية أن تحضر لزيارته ومعها تامر وداليا. تمت الزيارة في جو مقبض حزين. لم تغفل عيناه عن "داليا" التي كبرت قليلاً. أخذها في حضنه طوال الزيارة. قال لجان بلهجة توسل ورجاء: "وصيتي لك رعاية "داليا".. ربيها تربية صالحة... لا تجعليها تنحرف... هذه وصيتي الأخيرة". رحل "حمدان" بعد هذا اللقاء بأيام، ولم يعد هناك ما يحكي أو يقال.

١١- أسماء عابد

كنت أتابع برنامجها الثقافي في "إذاعة الشرق الأوسط" بغير انتظام. كنت أشعر أنها مذيعة موهوبة، صوتها له رنين مؤثر، تجيد

الحوار مع الشخصيات المدعوة للبرنامج. حرصت مع الوقت أن أتابع برنامجها بانتظام. علمت بعد ذلك أنها زوجة صحفي مرموق، يشتهر بأنه ناقد فني محترف، ينتقي بعناية النماذج التي يجري معها الحوار في تحقيقاته الصحفية، من نجوم الغناء والتمثيل والمسرح، بعد أن ابتعد تماماً عن التعامل الصحفي مع السياسيين منذ نهاية الخمسينات، بعد أن تورط في حديث صحفي مع سياسي معارض، ففصل من عمله بالمجلة قرابة عام.

لم أتصور أن تجمعني الظروف بلقاء مع المذيعة "أسماء عابد"، إلى أن دعاني صديقنا المشترك الناقد "جمال البدري" لزيارتها في منزلها القائم في الدور الأول من فيلا أنيقة ذات حديقة غناء في حي الدقي. تحمست للقاء. اجتمعنا في بهو استقبال واسع عريض، أثاث عصري فخيم، تحوط به الفوضى والارتباك، وأشياء كثيرة مبعثرة. استقبلتني باعتباري كاتباً أدبياً شبه معروف. بهرني وجهها المتحرر، شعرها الأصفر المنسدل على الأكتاف، بياضها المائل لسمرة خمرية، نظرتها الذكية المخترقة للنوايا في الصدور، طولها الفارع الممشوق. التلفيزيون مفتوح والصوت محبوس. تشعل سيجارة من سيجارة. تكمل كأس الويسكي قبل أن يجف وينضب. سألتها عن أخبار زوجها "موريس وجدي"، فاستغرقت في ضحك ممرور وقالت بسخرية: "ربما تراه أنت أكثر مما أراه أنا". دعتني

لحوار معها في برنامجها الإذاعي، فشعرت بأنني فزت بخبطة إعلامية. قالت لي بعد نهاية التسجيل: "علي فكرة.. يمكن أن يكون بيننا شيء ما.. لا أعرف متي وكيف؟".

لم أكن أعرف عن حياتها الكثير. تكفل "جمال البدرى" بتقديم صورة وافية عن سيرتها الذاتية، فعرفت الكثير. هي ابنة عمدة غني جداً في الصعيد، وهي ابنته الوحيدة المدللة التي لا يرفض لها طلب. تعرف عليها "موريس وجدي"، فسلب قلبها قبل أن يسلب عقلها. طلب الزواج منها فقبلت بلا تفكير. كان لأبيها رأي آخر. قال لها إنه صحفي انتهازي وفقير. رفضت هذا الوصف وأصرت على الزواج منه، ورضخ الأب لطلب ابنته المدللة، وتكفل بكل تكاليف الزواج. عاشت "أسماء" مع "موريس" في القاهرة أحلي سنوات عمرها الثلاث، وأنجبت منه ابنتها الوحيدة "فتنة". أبوها يعول الأسرة، وموريس ينطلق بسرعة الريح ليحقق الشهرة والنجومية، والثراء السريع من خلال التعامل مع الصحف والمجلات الخليجية. لم يعد لديه الوقت لينشغل برعاية "أسماء" و"فتنة". استدرجه الوسط الفني للكثير من المغامرات العاطفية، ولم يعد يربطه "بأسماء" وابنته سواء جدران بيت، وعقد زواج لم يبق منه سوى ورقة صفراء قديمة. لم يعد أيضاً في حاجة إلى مال أبيها. لم يبق في حياة "أسماء" سوى السيجارة وكأس "الويسكي" أو "الشمبانيا" والحديث الممل الطويل

مع المعارف والأصدقاء، وصور شاشة التليفزيون، ذات الصوت المكتوم، وأطباق الأسماك واللحوم بلا رفيق محبوب.

حدثني عنها "جمال البدرى" ذات يوم فقال لي: "يقال إنها مرت بتجربة عاطفية مشتعلة مع كاتب كبير معروف، ولم يكتب لهذه المغامرة الاستمرار والدوام، وعندما علم "موريس" بذلك لم يرمش له جفن". وعندما سألتُه عن مستقبل هذه العلاقة، قال لي ببساطة مستفزة: "كلاهما لا يفكر في الانفصال، وكلاهما يسمح للآخر بأن يفعل ما يريد دونما اعتراض أو احتجاج". وعندما سألته عن أحوال "فتنة" إزاء هذا الطلاق غير المعلن، أخبرني أنها تتردد على أكثر من طبيب نفسي، في فترة مراهقة حساسة، ومحنتها هذه هي أكبر مآسي ومحن أسماء.

كانت هناك صلة إعلامية تربطني بـ"موريس". كثيراً ما التقيت به في مناسبات ثقافية وفنية. لم أتوقع أن يجري معي حواراً أدبياً على صفحات مجلته، فلم أكن أملك الثمن المطلوب لإجراء هذا الحوار، من حيث الصلات أو المجاملة المادية. فوجئت به ذات يوم يطلب مني عمل ندوة له في نادي "إسبورتنج" بالإسكندرية. لم أجد ما يمنع من تلبية رغبته، فهو قد أصبح نجماً إعلامياً يحظي بجمهور لا بأس به. بعد انتهاء الندوة، دعاني لتناول العشاء معه في فندق "شيراتون بالمنتزة"، الذي كان مدعوا للإقامة فيه على حساب

النادي. انضمت إلينا على مائدة العشاء شابة صغيرة فائقة الجمال تقترب من العشرين من العمر، وتبدو مهووسة مراهقة بصحبة النجوم. صعدت معنا إلى الجناح المخصص "لموريس" الذي لم يجد حرجاً في مغازلتها أمامي، وملامستها في أماكن حساسة. بدوت كما لو لم أكن موجوداً، وعندما حانت اللحظة الحرجة، غمز لي بطرف عينه لأنصرف. عندما التقيت به بعد ذلك بأسبوع قلت له مشاغباً: "يبدو أنك مغرم بالمراهقات، وقد بلغت الخمسين". قال لي بلهجة بالغة التحرر: "المراهقة تجدد شبابي.. تمنحني طاقة جبارة لتحقيق الأماني والأحلام". وعندما سألته عن "أسماء" قال لي بقلب ميت وبراجماتية منفرة: "أدت دورها، ولم يعد عندها ما تقدمه".

غابت "أسماء" عن ذاكرتي بعض الوقت. لم يكن عندي ما يمكن أن أفعله للتخفيف عنها. فوجئت بها تتصل بي وتطلب حضوري إلى منزلها لأنني "وحشتها". تحمست لزيارتها علني أخفف عنها وحدتها. قدمت لي كأساً من "الويسكي"، وضعت أمامي علبة سجائر "مارلبورو". رجوتها أن تخفف من الشرب وتقلل من المصاريف. قالت كمن تقدم إجابة محفوظة: "الكأس هو صديقي المضمون "وموريس" لا يبخل علي بالمال والشاشة الصامتة لا تقدم شيئاً ذا بال". سألتها ما إذا كانت ما تزال تحبه. قالت بجدية زائدة: "الحب نكتة سخيفة في زمن متوحش.. ارتباطي بموريس هو بحكم

العادة.. الطلاق لا يحل المشكلة وهو عندنا مستبعد. بيننا اتفاق سري غير معلن بأن يفعل كل طرف ما يحلو له ويرغب". بدت لي أشبه ببطلة قصة تراجيدية. ظلت ترغي وتزبد لتملأ وقتاً فارغاً، إلى أن قالت فجأة: "تذكر أنني قلت لك منذ تعارفنا أنه يمكن أن يكون بيني وبينك شيء ما.. هل تذكر؟". قلت لها إنني لا أعرف ما يمكن أن يكون بيننا. سألتني إن كنت أحب زوجتي أم أستعبط؟ قلت لها إنني لم أشغل نفسي بمغامرات عاطفية.. ربما هي طبيعتي. أخذت جرعة كبيرة من كأسها، بدت أنها ستقول شيئاً مهما.

– أنت هكذا لن تكون كاتباً رائعاً.. مازلت تتمسك بتقاليد بالية.. الكاتب يتحرر من كل ما يقيده. موريس أصبح نجماً صحفياً عندما تحرر مني ومن كل ما يقيده.. حرر نفسك حتى تكتب بصدق.

– لم أتعود أن أفكر بهذه الطريقة.

– جرب ولن تندم.. لست امرأة قبيحة، ثم إنني مرأة ناضجة.. تحرر من جبنك وترددك.

فشلت في مقاومة ضعفي.. أصبحت أتردد عليها بانتظام.. كشفت لي الكثير من أسرار الصحافة والإعلام. قدمت لي خدمات جليلة في مجال النشر والشهرة وذيوع الصيت. لم أصدقها عندما قالت لي ذات مرة إن موريس سيحمل لي جميل ما فعلت معها.

صدقتها عندما دخل علينا "موريس" ذات ليلة، ونحن جالسان في البهو، فرحب بي كما لم يرحب من قبل، وطلب أن يجري حواراً معي على صفحات مجلته. جاءته مكالمة عاجلة على "الموبيل" فاستأذن في الانصراف. قال لي في اليوم التالي، وهو يسجل حواره معي: "أشكرك من كل عقلي.. ها أنا أرد لك الجميل". سألته بدهشة واستغراب: "أي جميل؟". قال بواقعية لا تعرف التردد: "أنت تعرف، وأنا أيضاً أعرف". قال لي، بعد ذلك، صديقنا المشترك جمال البدرى: "هو يعرف بأمر علاقتك "بأسماء"، وقد لاحظ أنها أكثر هدوءاً وارتياحا، وأصبح قادراً على التعامل معها دونما صدام أو شجار".

مرت سنوات. أصبح "موريس" رئيساً لتحرير المجلة التي يعمل بها. مع بداية التسعينيات حظيت الصحافة. بهامش أكبر من الحرية وتعددية الرأي. انتقل "موريس" من نجاح إلى نجاح، دون أي تصادم مع السلطة، التي مكنته من شرف رئاسة التحرير. عندما تصادم معها في بداية حياته الصحفية دفع الثمن غالياً، وقد أخذ عظة الدرس، وقد تعلم ألا يتصادم بعد أن تم ترويضه، وبعد أن أصبحت أيديولوجيته الوحيدة هي النجاح الشخصي. واصل تحقيق النجاح دون معوقات، وسط غيرة وحقد منافسيه، في مناخ يغذي المنافسات الشخصية، بعيداً عن التصادمات الحادة التي يمكن أن تتحرش

ب"شرم الشيخ". وأثناء لقاء مع "جمال البدري" أدهشني بخبر مهوهو يقول: "هل هنأت صديقك "موريس" على فوزه بخبطة إعلامية كبيرة.. نجح في الحصول على برنامج تليفزيوني أسبوعي، يستضيف فيه الوزراء وكبار المسئولين، ليحسن صورتهم أمام الناس، ويتظاهر بأنه يختلف معهم.. أصبح داهية إعلامية". لاحظت بعد ذلك أن معظم البرامج التليفيزيونية تستضيف "موريس" ليدلي برأيه في القضايا التي تشغل الرأي العام.

أخذت أبالغ في تعاطفي وإشفاقي على "أسماء"، بعد أن عانت من تليف مخيف في الكبد بسبب الخمر والتدخين والاكتئاب الحاد. نجح المرض الخبيث في التمكن من كبدها، ثم انتشر في الكلي والأمعاء، وتحولت الحياة، حياتها، إلى مسألة وقت ضيق صغير. أصبحت شغلي الشاغل. ساندتها بكل ما أملك من وقت. لم يبخل "موريس" عليها بالوقت والمال. كانت وصيتها الوحيدة له، ألا يبخل على "فتنة" بالحب والرعاية، مقابل أن تسامحه على إهماله لها. فارقت الحياة أمام زوج غائب وقلة من الأصدقاء. حرص "موريس" على ترتيب جنازة مهيبة لها، شارك فيها كبار المسئولين وكبار المنافقين لنجومية "موريس". ما أدهشني بحق أن "موريس" تحدث باستفاضة وبشجن لم أعرف من أين أتي به، عن قصة حبه "لأسماء" ومسيرتهما النضالية المشتركة والوفاء المتبادل المنقطع

النظير، تحدث عن كل ذلك في معظم البرامج الإذاعية والتليفزيونية والصحف والمجلات المصرية والعربية قال لي "جمال البدري" بعجب: نسي "موريس" أن يتحدث عن قصة حبه في الصحف والمجلات العالمية". لقيت "فتنة" رعاية مذهلة بعد غياب "أسماء"، وبدأت تقطع طريقها كصحفية شابة لامعة مرموقة، تنتظر دورها لتصبح صاحبة برنامج تليفزيوني شهير، يستضيف كبار المسئولين.

١٢- جماد بدوي

كان زميلاً لأبي في مدرسة "رأس التين" الثانوية بالإسكندرية. كان أيضاً يدرس لي مادة "الجبر والهندسة" في نفس المدرسة، في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية التي كانت تسمي "السنة التوجيهية" في عام ١٩٥١. كنت أحب فيه هدوءه وطول باله وصبره على التلاميذ المتكاسلين وعدم استعمال العصا لضرب المخطئ على راحتيه عشر ضربات، كما كان يفعل غيره من المدرسين. تمنيت أن يكون طويل القامة، حتى تكتمل صورته المحببة إلى نفسي. فرحت كثيراً عندما قرر أبي أن أتعاطي؟ أنا وأخي– درساً خصوصياً على يديه في شقته بعمارة كائنة في حي "بوالينو" بمحرم بك. تبينت أنه ليس متزوجاً، ويفتقد الشعور بالأبوة، وتعمل عنده خادمة سودانية، ذات فتنة سمراوية وحيوية طاغية. كانت تعاملني بأمومة حانية مترفقة، وكنت أعاملها بخيالي المراهق، خيال الخامسة عشرة،

كعشيقة لا تفارقني في حضورها وغيابها. اقتربت من الأستاذ "حماد" أكثر وأكثر. لم أكن شاطراً في الجبر والهندسة. أحببت هذه المادة من أجل خاطره. كان يؤنب أخي؟ المشترك معي في الدرس؟ على بلادته، حين يعايره بشطارتي ويقظتي. "إنصاف" الشغالة السودانية هي التي تفتح لنا الباب في موعد الدرس. تستقبلنا بحماس أنثوي مثير، تقدم لنا مشروب "الكركديه" وأكياس "البسكويت"، تمطرني بأسئلة بريئة كثيرة، أجيبها قدر ما أستطيع، وأنا أتأمل ثدييها ومشيتها الرجراجة. تمنيت أن أضرب لها موعداً في شارع الترعة المظلم (ترعة المحمودية)، لولا خشيتي أن أغضب الأستاذ "حماد".

حصلت على أعلي درجة في مادة "الجبر والهندسة" في امتحان الثانوية العامة. لم أتردد لحظة في الذهاب الفوري إلى منزل الأستاذ "حماد" لأبلغه بالنتيجة. استقبلني بفرح أبوي كبير. ظل يتسامر معي قرابة ساعتين. كان محدثاً بارعاً، يفيض حديثه بالمشاعر والعظات. أشعرني بأنني أتحدث مع صديق في الخمسين من عمره. عوضني عن صداقة مثل هذه الصداقة مع أبى. كنت أرهب أبي وأخاف منه أحياناً، فيتوقف لساني ويرتبك تفكيري. لا أشعر بذلك مع الأستاذ "حماد". كنت أطرح عليه أفكار ساذجة فيتقبل سذاجتي بحس أبوي. هنأتني "إنصاف" على نجاحي، وطلبت مني "حلاوة النجاح". قبلتها في وجنتها وأنا أقول لها "هذه حلاوة النجاح".

بادلتني قبلة بقبلة. رمقني الأستاذ بنظرة عطوفة مستوعبة وهو يقول بظرف: "أنت ولد عفريت.. ربنا يستر". وافقت أمي على منحي سلفة لأشتري لإنصاف علبة بسكويت، واشترطت عليها ألا تبوح بسري لأبي. بدت مستوعبة لمراهقتي.

التحقت بالكلية الحربية عام ١٩٥٢. تخرجت عام ١٩٥٥. عملت بقطاع رفح العسكري عندما حدث العدوان الثلاثي ١٩٥٦. انسحبت مع المنسحبين. كانت رحلة انسحاب مؤلمة، قاسية ومريرة. خدمت بعد ذلك بالقاهرة، وكنت أقضي إجازتي بالإسكندرية. كنت في حاجة لمعرفة حقيقة ما جري في العدوان الثلاثي بعيداً عن الإعلام الرسمي. لم يكن جيلي يعرف إلا ما تقدمه الإذاعة والصحف المصرية. شعرت برغبة ملحة في لقاء الأستاذ "حماد"، الأب والصديق والواعي المستنير. استقبلني بفرح غامر. حمدت الله أنني نجوت من لهيب الحرب. أخذ يحكي لي عما يعرفه من الإذاعات والصحف الأجنبية. لخص حديثه في النهاية بقوله: "نجحت الثورة في تأميم قناة السويس والمصالح الأجنبية، وهي في طريقها لبناء جيش قوي". عندما سألته عن المخاطر المحتملة، قال لي ما لم أنسه في حياتي طوال عقود تالية: "ليس بالخبز وحده نعيش.. حرية التعبير هي الضامن الوحيد للإنجازات

الوطنية.. لا أظن أن هذا الضامن سيتحقق في وقت قريب". لم أفهم هذه المقولة آنذاك الوقت، ولكنني استوعبتها بعد ذلك بعقود طويلة.

تولدت بيني وبين الأستاذ حماد صداقة مدهشة رغم فارق السن الكبير. تعجبت أنه يعيش وحيداً دونماً أصدقاء من سنه وجيله. شغلتني هذه الفكرة. انتظرت أن يحين الوقت، وأمتلك الشجاعة لأستوضح حقيقة ميله للعزلة والانطواء. مر وقت طويل قبل أن يحدثني عن تجربه حياته الخاصة. فهمت منه أنه مر بتجربة عاطفية مؤلمة وفاشلة، انعدمت بسببها ثقته في الجنس اللطيف، ولم يعد يفكر في الزواج. كان في حاجة إلى بديل. استولت عليه هواية المعرفة. استغرق في القراءة. قرأ في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس. أصبح عنده مكتبة ضخمة متنوعة. لم يجد في زملائه وأقرانه من يجاريهه في الثقافة والمعرفة، فأصبحت علاقته بهم علاقات سطحية عابرة. لم ينجح في تحويل الهواية إلى عمل عام لتحقيق الذات وخدمة الناس، في غياب حرية الفكر والتعبير والتعددية السياسية. كان ليبرالياً بحكم ثقافته وتكوينه العقلي، ولم يكن من أنصار التفكير الشمولي المستند إلى العصا الأمنية.

لم تنقطع صلتي بالأستاذ "حماد". كان لي معه لقاء مسائياً طويلاً في كل إجازة. أصبح بمثابة الأب الروحي. تعلمت من أفكاره الكثير. شجعني على مواصلة نشاطي الأدبي والصحفي. قال لي

ذات لقاء: "أنت تذكرني بشبابي.. تمنيت أن أحول هوايتي إلى عمل عام.. نجحت فيما فشلت أنا فيه.. عزائي أنني قدمت لك شيئاً من معرفتي، قبل أن آخذها معي إلى قبري". تواصلت العلاقة، فأصبحنا نتناول بضعة كؤوس قبل تناول العشاء. كنت قد تأخرت في الزواج فأراد أن يقدم لي خدمة جليلة. شربنا كثيراً ذات ليلة. طال السهر استأذن في النوم. دعاني للمبيت عنده بعد أن تجاوز الوقت الثالثة صباحاً. قال لي وهو يتوجه إلى غرفة نومه، ويتظاهر بأنه يطلق نكتة: "سرير إنصاف يتحمل اثنين.. جرب أن تكون ثاني اثنين". جربت بالفعل. لم تتوقف التجربة بعد ذلك. قالت لي إنصاف ذات مرة: "تحول التلميذ البريء إلى شاب منحرف". قال لي الأستاذ حمدان في لحظة من لحظات التجلي: "لم تنجح الثورة في تحقيق الوحدة بين مصر والسودان.. أصبح لك فضل تحقيق هذه الوحدة".

شغلتني بعض الوقت أمور كثيرة، فانقطعت عن زيارة الأستاذ لمدة عام. حدثت النكسة في عام ١٩٦٧، فذهبت لزيارته لأستطلع رأيه فيما جرى. لاحظت قفلاً كبيراً على باب الشقة. رأيت القفل في أكثر من زيارة. كنت أعرف أن أخي يتردد عليه. سألته بقلق عن مصير الأستاذ "حماد". قال لي أنه رحل إلى مسقط رأسه في "شبين الكوم" بعد أن أحيل إلى المعاش. سافرت إلى "شبين الكوم". تحملت مصاعب كثيرة حتى وصلت إلى بيت أسرته. وجدته فوق

حصيرة وسط أقاربه القرويين. لم يصدق أنني أمامه بشحمي ولحمي. فـرح برؤيتـي. بـدا شـاحباً وقـد فارقتـه بشاشـته وحيويتـه. انصـرف الجالسـون ليتركونا منفردين. تناولنا العشاء بـلا كـؤوس وفـي غيـاب "إنصاف". سألته عن مغزي هذه العزلة النهائية الجديدة. قال لي فيما يشبه الحكمة: "حياة بلا معنى، كان يلزم أن تعاش.. أليست هذه هي الحكمة البالغة التي أطلقها "ألبير كامي؟". سألته عن أخبار "إنصاف" فقال لي إنها قررت أن تعود إلى "السودان"، تعود هي الأخري إلى بيت أهلها. سألته عن تفسيره للهزيمة المروعة التي سميت بالنكسة، قال بوعي المثقف المعتزل للتجربة الثورية: "وقع زعيم الثورة فريسة لأمراض السـلطة المطلقـة".. هـذا مـا كنـت أخشـاه مـن غيـاب حريـة التعبير، رغم الانتصارات المبكرة للثورة..حتي هذه الانتصارات التي لصالح الشعب، ربما لا تجد الإرادة الشعبية المنظمة التي تحميها فيما بعد". ودعت الأستاذ مدركاً أنه قد اعتزل كل شيء، ولم يعد مناسـباً تكـرار الزيـارة، اعتـزل عاصـمة مصـر الثانيـة، اعتـزل مهنـة التدريس، اعتزل هواية المعرفة لوجه المعرفة، اعتزل "إنصاف". اختار أن يعـيش وسـط حقـول القمـح والـذرة وزهـور البرسـيم وتسـابيح المصلين. في عام ١٩٧٣ وبعد وقف إطلاق النار، وحصولي على إجازة، ذهبت لزيارته قبل أهلي لأفرحه بنصر أكتوبر، لم أجده فوق الحصيرة. علمت أنه قد رحل إلى باريه. وقفت أمام قبره. قرأت له الفاتحة وسورة "ياسين". قلت له في نفسي وأنا أودعه في مرقده:

"انتصرنا يا أستاذي.. أتمني أن يجد هذا النصر من يحمي توابعه وإنجازاته".

١٣- فؤاد مطاوع

رأيته لأول مرة في الكتيبة التي التحقنا بها في الإسكندرية، بعد التخرج من الكلية الحربية، رغم أنه أحد أفراد دفعتي التي تخرجت عام **١٩٥٥**. لم يكن أقرب ضباط الدفعة إلى قلبي في البداية، شعرت بأنه لا يفصح عن كل ما يفكر فيه، وله عالم داخلي خاص. ثم إنه أكثرنا وسامة ورشاقة وإعجاباً بنفسه، ولم أكن أستلطف بشرته البيضاء المشوبة "بنمش" وعينيه الخضراوتين، وبروز سنتيه الأماميتن، ونغمة صوته التي تبدو صادرة من أنفه. لم يكن قريباً من كل أفراد الدفعة، من محمود السيد وإبراهيم طايع وأنور بدير ووجيه المسيري. لم يختلف أحد على ذكائه الحاد وتكتمه الشديد على كل ما يفكر فيه. لاحظت أنه يقترب مني بشكل خاص. لم أرغب في صده، بل بدأت تزول بيني وبينه حواجز كثيرة. فوجئت بأنه ينتمي لقرية "بجيرم"؟ محافظة المنوفية، القريبة من قريتي (كفر الأكرم)، بنفس المحافظة. تذاكرنا أجواء البيئة الريفية التي عشناها في صبانا، فتوطدت به صلتي أكثر. لاحظت أنه يشغل أوقات فراغه بمغامرات نسائية لا تتوقف. مع تعاطي أصناف الخمور الرديئة، وابتعاده عن فرائض الصلاة والصوم، ما أدي إلى مزيد من ابتعاد الزملاء عنه.

انتقلت وحدتنا للخدمة بقطاع رفح الحدودي، تحت قيادة قائد جديد للكتيبة، كان يتصف بالثقافة الموسوعية، وحاصل على دراسات في الاقتصاد والعلوم السياسية. حظي "فؤاد مطاوع" بتقدير وإعجاب القائد الجديد، فعينه في وظيفة "ضابط أمن الكتيبة"، بكل ما تتصف به هذه الوظيفة من حساسية وأهمية. حدث العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. تم الانسحاب من سيناء. عادت وحدتنا للخدمة بالقاهرة في قطاع الهرم. أصبحت علاقتي بفؤاد علاقة صداقة حميمة. فوجئت بأنه ارتبط بعلاقة زواج مع حبيبة من أسرة بسيطة. واستأجر شقة متواضعة، ذات أثاث قديم، ليعيش حياة زوجية متقشفة، لم تكن محل رضا وقبول من أسرته، المقيمة في "حلوان". دعاني ذات يوم للتعرف على زوجته. لم يشأ أن يطلعني على بيته المتواضع. التقيت بهما في "حدائق حلوان". بدت لي "سميرة"؟ زوجته؟ امرأة متفتحة ذكية، عاشقة ولهانة، تفكر بطريقة عملية. هنأته. باركت الزيجة رغم تحفظاتي التي لم أصارحه بها. كنت الصديق الوحيد لأسرته الناشئة. انحسرت علاقاته الاجتماعية بسبب وضع الزيجة غير المألوف.

دعاني بعد ذلك لزيارة أسرته في حلوان. تناولت الغداء مع أبيه وأخيه الأصغر "فكري". والده رجل كبير منهك، يعاني من أمراض الروماتيزم والقلب والعظام، شديد التدين، لا يتحدث إلا في أمور

الدين والفقه والشريعة، يبدو حزيناً ومهموماً، توحي تعليقاته بأنه مر بظروف عصيبة ومحن جسيمة. أخوه "فكري" شاب عاقل ومتزن واثق من نفسه، يهتم بمادة "الشريعة الإسلامية" من خلال دراسته بكلية الحقوق التي يقضي فيها العام الأخير. الوالدة سيدة ريفية، اقتصرت حياتها على الإنجاب والطهي وغسيل الملابس ورعاية شئون المنزل.

تكررت زياراتي لأسرة "فؤاد". استشعرت أن الأب "مطاوع" والأخ "فكري" غير راضين عن تصرفات "فؤاد"، لا سيما عن زيجته الأخيرة المتسرعة، التي لا تعد باستمرار واستقرار، وقد أصبح له ابن من "سميرة"، ويعيش حياة اجتماعية معزولة، وضائقة مادية ملحة. وطلب مني فكري أن أنبه ابنه فؤاد لحرج موقفه ومستقبله المسدود.

انتهزت فرصة لقاء خاص مع "فؤاد" في شقتي "بمنيل الروضة". صارحته بعدم رضا أبيه وأخيه عن تصرفاته، وإنه يستحق حياة أفضل من حياته هذه، وهو ضابط ناجح ويتصف بذكاء خارق وقدرات عقلية ممتازة. استرخي في جلسته. سحب نفساً عميقاً من سيجارته. بدا أنه يجلس على كرسي اعتراف، وقد قرر أن يفتح عقله وقلبه، ويحطم كل الأقفال والمتاريس. طلب مني ألا أقاطعه وقد بدأ يتحدث.

"إسمع يا سيدي. أنت لم تعرف الكثير عن حياتي. قامت الثورة ١٩٥٢. دخلت الكلية الحربية بلا وساطة ولا كشف أطيان. كان أبي قيادياً كبيراً في جماعة الإخوان المسلمين. لم تكن الثورة قد اصطدمت بعد بالإخوان المسلمين. تخرجت من الكلية بلا متاعب. اصطدمت الثورة بالإخوان بعد حادث المنشية عام ١٩٥٥. اعتقل أبي وعاني من تعذيب رهيب في السجن أدي إلى تدمير صحته. زرته ذات يوم في السجن فجلدوه أمامي. كان أبشع وأسود يوم في حياتي. اعتقل أخي "فكري" وقضي عاما فظيعاً في السجن. أصيب بشلل في التفكير وعجز عن مواصلة الحياة. شعرت بأنني مراقب. قررت أن ابتعد بنفسي عن الشبهة والملاحقة بسبب موقف أبي وأخي المنتميين إلى التيار الديني الذي تنامت خلافاته مع الثورة. حرصت على إظهار نفسي بمظهر الشاب المتحرر من الموروث الديني وانتمائه. علاقات نسائية متسيبة.. مشروبات كحولية.. ألعاب ورقية.. عدم الالتزام بالصلاة والصوم.. البعد عن الحديث في السياسة.. زيجة طائشة لم تحظ بموافقة ورضا أسرتي المتدينة. هكذا ثبتت براءتي وشعرت بالأمان".

مرت بضعة أعوام. أخذ "فؤاد" يشعر بمزيد من الأمان، عندما أصبح محل ثقة وتقدير من قادته، وأخذ يترقي في المجال الأمني من وظيفة إلى الوظيفة الأعلي التالية. كانت علاقتي بزميلنا "أنور بدير" لا

تقل متانة عن علاقتي بـ"فؤاد مطاوع"، الذي لم يكن يكن أي محبة أو مودة للصعيدي "أنور بدير"، الذي جمعتني به ميول اشتراكية ثقافية، لم تتجاوز أكثر من قراءة بعض الكتب المطروحة في المكتبات ومناقشتها بعد التفرغ من طوابير التدريب. لاحظ فؤاد ارتباطي المتزايد بالزميل "أنور". بعد أن أصبحت لنا اجتماعات شبه يومية، ثنائية لا ينضم إليها ثالث. سألني بلهجة أمنية عن سبب صداقتي الوثيقة "بأنور بدير". أجبته بتلقائية وخفة: "يجمعنا حب القراءة والمعرفة". قال لي بلهجة من يراقب العلاقة: "أنور له ميول اشتراكية تثير الريبة والقلق". قلت له ببراءة ساذجة: "الثورة تهتم بالفقراء وتنحاز للعمال والفلاحين". نصحني بالحذر وهو يلاحظ دهشتي واستغرابي. لم ينقض وقت طويل، قبل أن يزورني فؤاد في موقعي في منطقة "أبو عجيلة". بدت الجلسة أشبه بعملية استجواب وتقصي معلومات. صدق حدسي عندما أخذ "فؤاد" يقلب في كتبي وأوراقي، ويقرأ بعناية معظم ملاحظاتي المكتوبة عليها. شعرت أنه حضر في مهمة وانصرف بعد إنجازها. اقتضت أمانة الصداقة أن أخبر "أنور" بما حدث. دخن أكثر من سيجارة وهو يجاهد في إخفاء قلقه وانزعاجه.

مرت شهور قليلة، لاحظت بعدها أن أنور قد تصرف فيما عنده من كتب وأوراق، ولم يعد يحدثني عن قراءاته وآرائه، ولم يعد

هناك ذاك الحديث الثقافي المسترسل الطويل. قال لي ذات مرة في تعليق سريع: "فؤاد يكره التيار الاشتراكي الصاعد، ويري أنه سبب نكبة التيار الديني السياسي الذي قمعته الثورة، وهو لا ينسي التعذيب الذي أصاب أسرته بسبب انتمائها الديني". لاحظت بعد شهور أخري قليلة، أن أنور بدأ يصلي ويصوم، انتظم في قراءة القرآن والأحاديث النبوية، انقلب موضوع الحديث بيني وبينه رأساً على عقب، أخذ يحدثني عن أهمية الإيمان والتسليم بالمشيئة الإلهية والرضا بالقضاء والقدر، وهو يستشهد ببعض المقاطع من كتب دينية عديدة، انتشرت في أركان موقعه الحصين تحت الأرض. بدا لي هذا التحول وكأنه رسالة ذات مغزي لفؤاد مطاوع، ليرسلها فؤاد بدوره إلى من يعنيهم الأمر. هكذا شعر أنور بالأمان، وهو يتعبد ويتهجد ويذكر الله كثيراً، بعيداً عن أي شبهة سياسية.

جمعني لقاء خاص مع زميلنا المشترك "إبراهيم طايع" كان شديد النقمة على "فؤاد مطاوع" ويرتاب كثيراً في أحكامه الأمنية. لم يكن مرتاحاً لانطوائية "أنور بدير"، وتقلبه من حال من حال، لكنه لم يكن له عداوة ويراه مسالماً شديد الانبضاط. كان يدرك ما بين فؤاد وأنور من غيرة وعداوة وخلاف شخصي وفكري. تحدثنا طويلاً بشانهما وشرحت له وجهة نظري في علاقتهما المعقدة، فقال لي في نهاية الحديث: "باختصار.. فؤاد هرب من شبهة التأسلم السياسي

بـالانحراف الأخلاقـي.. وأنـور هـرب مـن شـبهة الاشـتراكية المسيسـة بالتدين والتعبد والاستغراق في ذكر الله."

مرّ بعض الوقت قبل أن نتوزع كصحاب ويذهب كل منا في طريق. فؤاد وصل إلى وظيفة أمنية عالية. أنور أصبح مدرساً بالكلية الحربيـة. إبـراهيم عمـل فـي وظيفـة إداريـة مرموقـة. وقـد تـم انتـدابي للعمــل بمدرســة المشــاه. وحلــت نكســة يونيــو ١٩٦٧. انقلبــت الأحوال وتغيرت المقادير. حرص "إبراهيم طايل" على مقابلتي بعد عام من النكسة . أبلغني بخبر اعتقال "أنور بدير" للاشتباه في تورطه في انتقاد الأوضاع السياسية والدعوة إلى تغييرها، وأنه لا يستبعد أن يكون فؤاد طايع ضالعاً في هذا الاتهام الذي يشك في صحته. بعد ذلك بعام تقريباً اتصل بي "إبراهيم طايل" وأخبرني بنبأ الإفراج عن "أنور بـدير" بعـد أن ثبتـت براءتـه، وأصـر علـى إحالتـه للتقاعـد، وهـو يعيش الآن مع زوجته وأولاده، آمنا في بيته بمصر الجديدة. طلب منـي أن نـزوره سـوياً فـي بيتـه ونهنئـه بـالبراءة. قـال لنـا "أنـور" وهـو يسـتقبلنا ببشاشـة وارتيـاح: "نجـح فـؤاد طايـل فـي تصـفية حسـابات غامضـة معـي.. تأكـدت مـن تورطـه فـي اتهـامي.. حسـبي الله ونعـم الوكيل".

نشبت حرب أكتوبر ١٩٧٣، واستعادت مصر سيناء، وحل عصـر الانفتـاح الاقتصـادى، بعـد أن أحلـت أنـا وزمـلاء دفعتـي إلـى

التقاعد، واتخذ كل منا طريقاً جديداً في دروب الحياة المدنية، انشغلت بالكتابة والصحافة، وانشغل إبراهيم طايل بتجارة الأسمنت والحديد، وانشغل أنور بدير بالعمل في "السعودية"، أما "إبراهيم مطاوع" فقد أصبح مديراً لتوكيل شركة "سفن أب" في مصر، ونجح في إنشاء شركة خاصة للمشروبات الغازية، وحقق أرباحاً انفتاحية هائلة، وأصبح ابنه "فوزي" شريكاً له، وأصبح للشركة فروع في بعض الدول العربية.

فوجئت بعد ذلك بسنوات أن "فوزي فؤاد مطاوع" أصبح من كبار رجال الأعمال، واتهم في قضية قروض وفساد، وخرج من القضية كالشعرة من العجين. دعاني "فؤاد" ذات مرة لقضاء يوم معه في "الشاليه" الذي يملكه في "قصر المنتزة" ، بعد أن وخط الشيب شعرنا. قبلت الدعوة وقضينا وقتاً ممتعاً.

سألته بعشم: "ماذا تعلمت من مشهد رؤية أبيك وهو يجلد أمامك في السجن؟". قال لي بشجن عميق وهو يسترجع عقود طويلة من الزمن: "تعلمت أن أهجر دنيا السياسة بكل مآسيها وشرورها ونكباتها.. تعلمت كيف أعمل لحسابي وأحقق طموحاتي الشخصية". عاد يقول وهو مستغرق في الضحك:" هكذا جنبت ابني فوزي أن يراني أجلد أمامه داخل جدران سجن".

١٤- أحمد أيوب

لم أنطقه أبداً في صباي إلا وقد توسط اسمه لقب (بك).. "أحمد بك أيوب: لم أره أبداً في صباي وشبابي، ولم يكن ممكنا أن أراه في فتوتي وكهولتي. تعرفت عليه من خلال الشارع المعنون باسمه.. شارع "أحمد بك أيوب"، ذلك الشارع الذي يتفرع من شارع المأمون، ويصب في شارع ترعة المحمودية، في قلب حيّ "محرم بك" بالإسكندرية. لم يكن شارعاً كأي شارع. ارتبطت صلتي به مع بدايات الحرب العالمية الثانية، عام ١٩٤١ تقريباً، عندما وفدت مع أسرتي من القرية للعيش بالإسكندرية. لم يكن له مثيل في كل شوارع المدينة التاريخية الموغلة في القدم. شارع مرصوف بعناية، ناعم نعومة الحرير، تصطف على جانبيه مجموعة من الفيلات الأنيقة الفخمة التي ليس لها مثيل في مصر كلها آنذاك الوقت، والتي يسكنها جنرالات الحرب الإنجليز، لا نعرف ما يدور بداخلها، ولا نري منها سوى أسوار حديدية مستحكمة، تحرسها كلاب بوليسية ضخمة ومرعبة من طراز "وولف"، ويكفي نباحها المرعب للابتعاد عن هذه الأسوار، التي تتصدر حدائق غناء، تعلوها جميع أنواع وأشكال الورود. كان هناك أيضا في الشارع قصرين، يحوط بهما الغموض، حيث يختفي كل قصر داخل غابة من أشجار "الفيكس" تمتد فروعها خارج السور وتغطي الرصيف، ولا يفتح

بابهمـا إلا فـي النـادر القليـل، ولـم أر مـرة واحـدة ملامـح وجـوه سكانهما. كل ما عرفته من أبي أن ساكن أحد القصرين هو أمير إيطالي بالغ الثراء، هرب من "موسوليني" وبطشه ليعيش لاجئا في مصر، ولا أذكر كيف اصطلحنا على تسمية هذا الأمير باسم "إيطاليانو". وساكن القصر الثاني هو مستوطن يهودي إنجليزي يملك مصنع شركة "كوتاريللي" للسجائر، كنا أهل الحي نعرفه باسم "رابين"، ولم نره مرة واحدة. الفيللا الوحيدة في الشارع التي يسكنها مصري، هي فيللا "أحمد بدوي"، صاحب شركة شيكولاته وحلويات، القائمة عند حافة الحي وعلي شاطئ ترعة المحمودية.

لم يكن مسكن أسرتي يبعد كثيراً عن شارع "أحمد بك أيوب".. ثلاثة شوارع تفصلني عنه.. شقة في عمارة من أربعة أدوار، عمارة من عمارات الطبقة المتوسطة، أمامها فيللا لمصري من أصل مغربي، وعلي يسارها فيللا لمصري من أصل لبناني، وخلفها بيت كبير من دور واحد يملكه رجل أعمال أرمني صاحب محل شنط وأحذية، ويسكن في الشقة المقابلة لشقتنا موظف مصري يهودي يعمل في محل "صيدناوي". كان مرورنا– أنا وأصحابي، بشارع "أحمد أيوب" بمثابة نزهة وفسحة في حي سياحي، مثل الأحياء التي نشاهدها في الأفلام الإنجليزية والأمريكية. لم يكن يكدر صفو نزهتنا سوى "هبهبة" الكلاب خلف الأبواب الحديدية للفيللات.

كانت الصلة الوحيدة التي تربطنا بجنرالات بريطانيا العظمى (سكان شارع أحمد أيوب)، هي ملعب "كرة القدم" الكائن على يمين عمارتنا. كانوا يجتمعون في الملعب كل يومين لعمل مباراة حامية الوطيس فيما بينهم، حيث يحتشد المشاهدون حول الملعب وفي البلكونات، وما أن تنتهي المباراة، ويستريحون قليلا في ركن الملعب، حتى نلتف حولهم- نحن الشباب- فيبادلوننا الابتسامات، ويوزعون قطع الشيكولاته، فننسي أنهم مستعمرون يحتلون الوطن، ننسي في لحظة، ونتظاهر ضدهم بلا انقطاع.. قطعة شيكولاته في مقابل استثمار قناة السويس ومحصول القطن.

تغيرت أشياء كثيرة في الحيّ بعد انتهاء الحرب ١٩٤٥. رحل الجنرالات إلى معسكراتهم غربي قناة السويس. خلت منهم الفيللات مثلما خلت من نباح كلاب الحراسة. آلت ملكية إحدي الفيللات إلى وزارة المعارف العمومية، وتحولت إلى مدرسة "محرم بك" الخاصة، التي تعلم تلاميذ الأهل المقتدرين بمصروفات إضافية. كان من حظي الالتحاق بهذه المدرسة، مثلما كان من حظي أن أتعرف على "سمير بدوي" (ابن رجل الأعمال "أحمد بدوي".. صاحب شركة الحلويات). كان يجلس بجواري في الفصل.. تلميذ نازح من الريف يجلس بجوار ابن رجل الأعمال. بدا "سمير" ودودا حسن العشرة، فتوطدت علاقته بزملائه. كان يصحبنا إلى فيللته في

شارع "أحمد أيوب" لنستذكر سويا بعد الظهر. تلك أول مرة في حياتي أدخل "فيللا". أصابني الذهول والدوار. تخيلت أنني أقطن قصراً من قصور الجنة. كان سمير يقدم لنا المشروبات والحلويات والشيكولاته بغير حساب. انقطعت صلتي به بعد حصولنا على شهادة الثانوية العامة حدث شيء آخر بعد انتهاء الحرب. أصبحت أمر بالشارع العتيد– دونما خوف من نباح الكلاب، وأنا أصحب فتاة أحلامي إلى شاطئ ترعة المحمودية، لنستظل بأعواد الغاب واللبلاب بعيدا عن الأنظار والعيون، ورقابة الأهل والوشاه.

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. استغرقتني هموم الخدمة العسكرية، وما ارتبط بها من حروب. هكذا انقطعت صلتي بأحمد أيوب والشارع المسمي باسمه، حتى تزوجت أختي "صفاء"، بعد عام من قرارات يوليو الاشتراكية عام ١٩٦١. كنت في زيارة للإسكندرية عندما دعتني صفاء لزيارتها في منزلها الزوجي لتناول الغداء. طلبت منها عنوان سكنها الجديد، فقالت لي: "١١" شارع "أحمد أيوب". أصبت بحالة من الدهشة والانبهار. ذهبت لزيارتها. هكذا لمست أقدامي الشارع العتيد بعد سنوات طويلة من الانقطاع والبعاد. شارع ملئ بالمطبات وأكوام الـ.. ، تصطف على جانبيه عمارات متعددة الأشكال والألوان، مقاهي ومحلات بقالة وسمكرة ودواجن وورشة سيارات وجاراج يخزن السيارات فوق الرصيف، الذي يضج

بالأكشاك. رغبت في استعادة بقايا ذكريات، فقطعت الشارع من أوله إلى أخره. تحولت مدرسة "محرم بك" الخاصة إلى ملجأ أيتام. اختفت فيللا "أحمد بدوي" من الوجود. تحول قصر الأمير الإيطالي إلى قنصلية صينية. تحول قصر "رابين" إلى مقر للشركة المصرية للدخان. تم ردم فرع ترعة المحمودية، وتحول إلى شارع حيوي عريض تحت اسم "شارع قناة السويس". لم يعد هناك، بطبيعة الأحوال، وجود لفيللات الجنرالات الإنجليز. شعرت أنني أمر بشارع شعبي، مثل شارع "بوالينو" أو شارع "منشا"، ولم يعد يربطه شيء بأحمد أيوب الحاصل على لقب "البكوية" من جلالة الملك المعظم المفدي. لم يعد يربطني بالشارع سوى شقة أختي الكائنة في عمارة باهتة الطلاء، يحتشد أمامها صبية، يلعبون بكرة "شراب" أو يركبون الدراجات.

مضت سنوات كثيرة طويلة ودعت الخدمة العسكرية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، التي سميت "آخر الحروب". انشغلت بنشاطي الصحفي، ولم تكن ذكري "أحمد أيوب" قد سقطت من ذاكرتي، رغم أن الشارع قد أصبح شارعاً غير الشارع الفخم. قررت أن أجري تحقيقاً صحفياً عن الشخصيات التي سميت باسمها معظم شوارع الإسكندرية. أخذت أقلب في وثائق بلدية الإسكندرية القديمة، أوراق المحافظة الجديدة، وأقسام التوثيق بالجامعة والأحياء. إلتقيت

بالخبراء والمعنيين بأمور التوثيق المحلي. عثرت على بعض ملفات بعض الأسماء المكتوب أسماءها على بعض الشوارع، ولم أعثر على ملف "أحمد بك أيوب". أعترف بأنني تضايقت كثيرا ونالني إحباط غامض. تمنيت أن ترتبط ذكري الشارع بتاريخ صاحبه. قررت أن أدير ظهري لهذا الهاجس الذي لم يعد له معني أو فائدة. قلت في نفسي دون أن يجافيني الغيظ: "ما القيمة؟.. إنمحت تضاريس الشارع، مثلما إنمحي تاريخ صاحب الشارع، المسمي باسمه".

١٥- سعاد عثمان

تعرفت عليها عندما دخلت شقة خطيبتي لأول مرة في صيف عام ١٩٦٥. كنت أتوسط مجلس أسرة خطيبتي "همت" في الصالون، عندما دخلت علينا "سعاد عثمان"، تحمل صينية المشروبات الباردة، لنطفئ ظمأ شهر يوليو. بهرتني ملامح وجهها وقوامها وفستانها الأنيق، ذا الألوان الساخنة، الذي يضيق حول خصرها النحيل. ظل نظري معلقاً على هيئتها، منذ أن دخلت الصالون حتى خرجت. تابعتها وهي تفرغ زجاجات "الكوكاكولا" في الأكواب، وهي توزع الأكواب علينا، وهي تقدم المناديل الورقية، وهي تنسحب برشاقة وهدوء. انطبعت صورتها في مخيلتي، ضفيرتا شعر فاحم السواد، مسدلتان خلف ظهرها، فم في حجم الخاتم، وجنتان تصرخان بدماء فَوارة، صدر كروي بارز، قوام فارع، له

قسمات راقصة "بالية"، وجه مشع يطلق اليكترونات البهجة والمودة والشعور بالأمان. لم أشك لحظة أن هذه الصبية هي أخت خطيبتي "همت". فستان عصري، حذاء آخر موضة. لو أنني رأيتها قبل التعرف على "همت" لخطبتها. فقدت تركيزي، تشتت تفكيري وأنا أتبادل الحديث مع أسرة النسب القادم.

أدركت مع تكرار الزيارات أن "سعاد" ليست أخت "همت، وإنما هي الشغالة. لم تفارقني الدهشة طوال فترة الخطوبة. لم يسمح التعارف الجديد بالسؤال المباشر عن حكاية "سعاد" ومسار حياتها الملفت الذي أثار فضولي بلا حدود. وبمرور الوقت تجمعت لدي معلومات لا بأس بها، حصلت عليها من حماتي "خديجة". "سعاد" ابنة تاجر صعيدي بسيط، هاجر مع أسرته إلى الإسكندرية وعاش في حي "الورديان"، اشترك مع إخوته في تجارة البصل، عاش حياة كريمة ميسورة، أنجب ولدين وبنتين وكانت "سعاد" هي آخر العنقود. سرقه إخوته، فخسر تجارته. تكفل ابنه الأكبر (ميكانيكي) بهم أخيه الأصغر، تزوجت الإبنة الكبرى، لم يعد يشغل الأب سوى مصير ابنته "سعاد" التي لم تكن قد تجاوزت التاسعة من عمرها. كانت تربطه صلة تجارية بوالد "همت" (يوردله في محله البصل الصعيدي)، رجاه أن يتبنى "سعاد"، على أن تقوم بخدمة أسرته في

وظيفة "شغالة". ارتاحت "خديجة" لمظهر "سعاد"، براءتها وطيبتها وأمانتها.

تضاعفت رعايتها لها بعد أن مات أبوها محسوراً، وعاني إخوتها من ضيق الحال. لم تعاملها خديجة كشغالة، عاملتها معاملة الإبنة، أصبح لها كل حقوق الأبناء من مأكل ومشرب وملبس وسرير كامل الفراش، أصبح لها حق الصحبة واللعب والمسامرة مع "همت" وأختها الكبرى. هكذا اكتسبت "سعاد" اليتيمة كل مظاهر الحياة الراقية النظيفة، تنامت براءتها وطيبتها، تعلمت كيف تتكلم؟ كيف تجامل؟ كيف تتعامل مع الكبير؟ كيف تعطف على الصغير؟ فاقت معظم مثيلاتها من بنات الأسرة في الذوق والرقي والتحضر. تعامل معها الأقارب والمعارف على أنها ابنة "خديجة" قبل أن يكتشفوا أنها الشغالة التي تعمل عندها. تضاعفت الألفة والمودة بيني وبينها. أصبحت أختي الثالثة. كانت أقرب إلى قلبي من أختي الأصليتين.

أصبحت أتعامل معها بعفوية وتلقائية، أثارت حفيظة زوجتي، التي كانت أحيانا تشك في نواياي وتراقبني بريبة. ومع ذلك، كثيرا ما كانت "سعاد" توصيني خيرا بـ "همت"، وتذكرني بأنها أختها التوأم، وبأنني تزوجت قطعة من السكر، تنز حباً وحنانا وطيبة. وكلما سألتها لماذا لا تكف عن الضحك، تقول لي: "أصلي عبيطة يا سي طلعت"، ثم تستغرق في الضحك وهي تقول: "أهلي يسمونني

"العبيطة". وعندما سألتها عن السبب قالت: "عندما كان يموت أحد أقاربي أستغرق في الضحك، وعندما أفيق لنفسي وأستوعب المصيبة لا أتوقف عن بكاء مّر طويل لمدة يومين". وعندما ينتابي همٌّ وكمد بسبب مشكلة، تقتحمني بلا مقدمات وتقول: "مالك يا سي طلعت.. لا تحمل همّا.. الدنيا قلاّبة.. يوم عسل ويوم بصل.. لا تشغل بالك". وأجد نفسي- بلا تحفظات- أحكي لها عن مشكلتي، فتسمعني باهتمام وعقل متفتح، وتلهمني بحل سحري للمشكلة.

مرت الأيام والسنون. قامت حرب يونيو ١٩٦٧، وانتهت في ستة أيام بهزيمة فادحة. انتقلت للخدمة بالجبهة غربي قناة السويس. اضطرت زوجتي (العاملة بالبنك الأهلي) لترك القاهرة للعيش مع أمها بالإسكندرية، لينال الإبن "أكرم" والإبنة "زاهية" الرعاية المطلوبة، أثناء غياب "همت" في عملها وغيابي في الجبهة، أصبحت "سعاد" هي الأم الحقيقية لابني وابنتي، تلاعبهما، تطعمها، تحكي لهما الحكايات، تتمشى معهما على كورنيش البحر، تلعب معهما الكوتشينه، ينشغلان عن جدتهما وأمهما ليقضيا معظم وقتهما مع "سعاد". عندما وصلت "زاهية" إلى سن المراهقة، اكتشف الجميع أنها أصبحت نسخة طبق الأصل من شخصية "سعاد"، نفس الطباع، نفس العادات، نفس العفوية والتلقائية، حتى أن "همت" لم تكف

عـن لومهـا وتأنيبهـا لتشـبهها "بسـعاد"، ودَعتْهـا للانـدماج أكثـر مـع زميلاتها في المدرسة.

عدت للخدمة بالإسكندرية بعد انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣. استمرت إقامة أسرتي في بيت "حماي" بعض الوقت. لم تتوقف سعاد عن تهنئتي بنصر أكتوبر كلما حانت مناسبة، مناسبة حقيقية أو مناسبة تصطنعها، وتقول بحماس: "ربنا ينصركم على الأعداء ولاد ال ....، ربنا يورينا فيهم يوم.. آخرتهم مكتوبة في القرآن". وجاء ذاك اليوم الذي أخبرتني فيه حماتي بأن هناك عريس تقدم لـ "سعاد". عريس اسمه "زين" وهو عامل "زهورات" (باليومية) في معمل تكرير بترول في محطة "مرغم" بالعامرية، ويكبر سعاد بخمسة عشر عاما. لم أخف رفضي واحتجاجي، عريس فقير وهناك فارق كبير في السن. سألت سعاد عن رأيها، وأنا أتوقع أن يجيء الرفض منها. فوجئت بها تجيب في رضا واستسلام: "وماله يا سي طلعت.. هذا هو المقدر والمكتوب.. ربنا أراد كده.. أنا راضية بما يرضي الله.. ربما يكون أحسن من غيره.. الفرص أمامي ليست كثيرة.. ظروفي لا تسمح بعريس "لُقطة". وتزوجت "سعاد" الجميلة المتحضرة من "زين" الفقير المتخلف في مظهره وعاداته وتقاليده، الذي يعيش مع أسرته في بيت آيل للسقوط، لا أحد يعرف متي ينهار فوق رؤوس سكانه.

تحدثت كثيراً عن "سعاد" مع صديقي الدكتور "أحمد طاهر"، أستاذ علم النفس بكلية الآداب. عبرت له عن حيرتي في قبولها زوجاً غير مناسب، بل غير متكافئ. قال لي بلهجة خبير في شئون النفس الإنسانية: "سعاد لبت نداء الطبيعة.. أرادت أن تصبح زوجة ويكون لها أبناء.. وعت قسوة ظروفها فلم تحلم بأكثر من الممكن، ولم تشأ أن تكون شغالة إلى الأبد.. نزعت بفطرتها إلى التحرر من دين ثقيل، دين التربية والرعاية التي حبتها بها مخدومتها.. أحيانا ما تكون الحرية أغلي من الفوز بمكاسب حياتية مشكوك في أمرها".

وتزوجت سعاد. لم أشعر أنها سعيدة في زواجها، ومع ذلك لم تشك لي مرة واحدة، ولم تتوقف عن الضحك بمناسبة وبغير مناسبة. كانت قادرة على استقطار البهجة حتى من أزيز الرياح والأعاصير. لم تقطع صلتها بالبيت الذي تربت فيه. ظلت تعمل عند "خديجة" ثلاثة أيام في الأسبوع، بدافع المحبة والوفاء وتحقيق دخل مطلوب ولا غني عنه. وبمرور السنوات أنجبت ولدين وبنت، أصبحوا الأمل والرجاء والمستقبل، أصبحوا كل شيء في حياتها.

ودارت الأيام. توفت والدتي. لم يعد هناك مفر من توفير الرعاية لأبي الذي تجاوز الثمانين ويعيش الآن وحيداً. توزع أخواتي في دروب الحياة، أربعة يعملون في الدول العربية، وأخت متزوجة في القاهرة، وأبي يرفض هجر بيته، ليعيش معي في بيتي، ويرفض العيش

في دار المسنين، بعيداً عن جدران بيته وما تحمله من ذكريات. لم تكف "سعاد" عن سؤالي عن أحواله. عرضت على أن ترعاه بضع ساعات كل يوم. فرحت بالعرض الذي كان خدمة لا تقدر بمال. وأخذت تتردد عليه، إلى أن وقع ذات يوم وهو ذاهب إلى الحمام، فكسرت ساقه، ولم يعد هناك مفر من وجود مرافق دائم يعيش معه.

حكت لي "سعاد" عن قرار "لجنة الإسكان" بالمحافظة بإخلاء بيتهم الآيل للسقوط، وقد تم الإخلاء، وهي تعيش مع أسرتها في معسكر خيام. عرضت عليها أن تعيش مع أبي، هي وأسرتها. عاداتها وتقاليدها الراقية تتناسب مع هذا العرض. ثم إن أبي يعيش في بيت مستقل، واسع وكبير، ومتعدد الأجنحة، وتستطيع "سعاد" وأسرتها أن تعيش في جزء منه. أذهلها العرض. لم تصدق أنها ستنتقل من خيمة، لتعيش في بيت مريح،، حتى تأتيها شقة المساكن الشعبية التي وعدت بها "لجنة الإسكان".

هكذا انتقلت "سعاد" مع أسرتها للعيش مع أبي، الذي ذهل من خبرتها في الشئون المنزلية، في سلوكياتها الراقية، في حسن طباعها ودماثة أخلاقها، في ظرفها ومودتها، في بساطتها وتلقائيتها وحسن العشرة. هكذا تولدت قصة حب إنسانية عجيبة. أصبحت "سعاد" بديلة زوجة أبي الوفية المخلصة، وأصبح أبي بديل والد "سعاد" الذي مات وهي صغيرة، فعرفت معني اليتم. حكي لها قصة

حياته في جلسات وسهرات ومناسبات. أغرته بكتابة حكاية حياته. سّجلت له كل ما يقول على "ديكوردر". تحتفل بعيد ميلاده، وتدعو الأقارب وأصدق الأصدقاء. تدير جهاز التسجيل لتسمعه كل أغانيه المفضلة لعبد الوهاب وأم كلثوم. قالت لي ذات مرة: "أسمع من أبيك كلاما لم أسمعه في حياتي.. كلام عشاق ومحبين.. عفريت وشقى.. بس مش قبيح.. سجلت له حديثي معه لأسمعه من وقت لآخر.. يراني في صورة المرحومة زوجته "فاطمة".. يناديني أحيانا باسمها.. أراه في صورة المرحوم أبي.

لم يعد واردا حدوث توتر أو خلاف. "سعاد" تتقاضي مكافأة الرعاية، وزين ينعم بحياة مستقرة رخية. لم يكن هناك ما يكدر سوى قلق أختي "ألفت" على مصير بيت الأسرة. خشيت أن يؤول إلى "سعاد" بعد وفاة أبي. عبرت عن قلقها خلال إجازاتها لمصر، وهي تحمل معها آلاف الدنانير الكويتية، وتحتفظ برصيد ضخم في البنك الأهلي.

طلب أبي من سعاد أن تصحبه في زيادة إلى قريته بالمنوفية ليستيعد الذكريات.صحبته عن طيب خاطر. استمتعا بوقت طيب جميل. حكي لها عن ذكرياته في القرية. عّرفها بقبره. توسل إليها أن تتكفل بدفنه في قبره بنفسها، وترقد بجواره في مقبرة نساء الأسرة. عاد معها إلى الإسكندرية وهو يحمل ذكريات حيّة، أضافها إلى

مخزون الذكريات القديمة. تراكمت أوجاع الشيخوخة. لم يعد أبي قادراً على مغادرة السرير. ضاعفت "سعاد" من رعايتها له على حساب أسرتها. تسهر بجواره، تّحكي له حكايات، تُسمِعه الأغاني، تطعمه بيدها، تقبله في جبهته قبل النوم. جاءت أختي "ألفت" من البلد الشقيق بدعوي الاطمئنان على صحة أبيها، ولم تكن قد فعلت ذلك من قبل.

أساءت معاملة سعاد، التي تحملت منها الكثير من عبارات التقريع والتوبيخ، وإنذارات التهديد والوعيد. تحملتها "سعاد" بصبر أيوب. بدت صاحبة رسالة، تعرف ماذا تفعل، وكيف تتعامل بلياقة وأدب. قالت لي ذات مساء: "طمئن أختك الست "ألفت".. أنا أعرف ما يقلقها.. سأسلمها مفاتيح البيت بعد وفاة أبيك.. يكفيني أنني فزت بحب "سي شكري" وهذا أغلي عندي من حيازة عمارة.. قل لها إنني حصلت على شقة في المساكن الشعبية بفضلك، ولست في حاجة إلى حيازة بيت أبيك".

وصلت لحظة الفراق. عاني أبي من مشاكل في القلب والكبد. لم تذق "سعاد" طعم النوم ثلاثة أيام بلياليهم. فارق الحياة ورأسه راقد في حجرها. رافقتنا إلى القرية تنفيذاً لوصية أبي. جلست بجوار جثمانة في عربة الإسعاف. وصلنا إلى فوهة القبر المفتوحة. أودعناه مثواه الأخير وسط صراخ وولولة سعاد. لم تشأ أن تعود معنا إلى

البيت لتقبل العزاء. ظلت جالسة بجوار فتحة القبر وهي تبكي. لم تغادر موضعها قبل يوم وليلة. لم يدخل جوفها سوى الماء وبعض كسرات الخبز، وهي تتلو القرآن. انتهت مراسم الوداع وعدنا إلى الإسكندرية.. أنا وسعاد، وألفت التي لم تتوقف عن نظراتها المتوجسة حيال سعاد. وصلنا إلى البيت. أخذت سعاد تجمع ملابسها وحاجياتها. وضعت حقائبها بجوار باب الخروج. توقفت أمام ألفت بكل أدب وأحترام. سلمتها مفاتيح البيت. قالت لها بلجهة عتاب رقيقة: "شكك لم يكن في محله.. "سي شكري" أغلي عندي من ألف عمارة.. كان أبي مثلما هو أبوك.. ربنا يسامحك.. سلام عليكم". سلمتني "سعاد" الشرائط المسجل عليها حواراتها مع أبي. رجتني إذا لم أمانع أن أقدم لها نسخة منها. قدمت لي الصور التي جمعتها مع أبي في الحدائق والمتنزهات. رجوتها أن تحتفظ بها على سبيل الذكرى. لم أتوقف عن زيارتها في شقة المساكن، باعتبارها أختي الثالثة.

١٦- عيسي ماهر

التقيت به بالصدفة أثناء زيارة لأخي في شقته. بدا لي "عيسي ماهر" شخصية ملفتة، تستحق التوقف أمامها، فهو من جيلي الذي تفجر وعيه مع قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وتعايش مع الأحداث الوطنية والعربية والعالمية طوال النصف الثاني من القرن العشرين. بدا لي

ألوفاً، مرحاً وبسيطاً، لا يكف عن إلقاء النكات والقفشات، يصف "ثلة" أصدقائه بمصطلح "الرومانسيون القدامى". لم أفهم قصده. سألته التوضيح فقال لى: "استهلكناعمرنا في مغامرات نسائية لم تتوقف.. كان نضالنا الجنسي أكثر بكثير من نضالنا الوطنى.. توارى مجد الفتوة والرجولة، مثلما توارت أوهام المجد السياسى. شعرت من تعليقه بأن مزاحه لا يخلو من وعي بما يجرى، وعي يستحق الاستيضاح والاهتمام. بدا لي فتيا لا يشكو من أمراض، ويتمتع بيقظة عقلية زاعقة. تولدت بيني وبينه ألفة خاصة، تحولت مع الوقت إلى صحبة ساخنة.

دعاني لزيارته في منزله. ذهبت إليه بلا تردد. منزله عبارة عن "فيلا" كلاسيكية قديمة من دورين، مساحة الحديقة أكبر من مساحة "الفيللا"، بها نباتات وورود مستوردة من دول أسيوية وأوروبية. استقبلني في "بهو الاستقبال"، مفروش بأثاث تقليدي مذهب، مكتبة ضخمة تلف جدران البهو، تضم الموسوعة البريطانية والأمريكية. دعاني لتناول وجبة سريعة في المطبخ، الكتب تفترش الأرض والمائدة والكراسي و"رخامة" الأطباق. شعرت بأنني أرى وجهاً آخر من شخصية "عيسى ماهر"، الوجه الجاد الذي يتخفي تحت الوجه الهازل.

لاحظت خروج صبية جميلة فاتنة من غرفة نوم، ترتدي قميص نوم يكشف كل ما بداخله من قسمات وتعاريج ومنحنيات مثيرة للعقل والخيال. بادلتني التحية وذهبت إلى الحمام. رمقني "عيسى" بنظرة تستشعر استغرابي. أراد أن يبدد دهشتي في التو واللحظة فقال: "لا تشغل بالك كثيراً.. توفت زوجته منذ عشر سنوات.. سها؟ التي رأيتها؟ فتاة ناضجة متحررة متفتحة.. نتبادل الحب والصداقة بلا حدود.. مهندسة كمبيوتر تعمل في صناعة البرامج الإلكترونية.. تعيش معي في غربتها عن أسرتها التي تعيش في المنصورة، التي أوصتني برعايتها، فلم أحرمها من أي شيء". كان هذا هو الوجه الثالث لشخصية "عيسى".. تحرُّر من المتعارف عليه.. حرية واسعة تمثل وجهة نظر.

دخل علينا شاب لا يقل عمره عن ثلاثين عاماً، رشيق، وسيم، بياض لامع، يضج وجهه بحيوية صارخة وذكاء لامع ونظرات تخترق الفولاذ، يرتدي سترة لا يقل ثمنها عن ثمانمائة جنيهاً في زمن هو زمان الثمانينيات. حياني دون مصافحة. سألني عن أخباري دون انتظار إجابة. اختلي بأبيه في ركن البهو. تبادلا حديثاً متسارع الجمل والكلمات، يضج بأرقام وحسابات ونسب مئوية. خمنت أنه يتلقي نصائح هامة من أبيه، قبل أن ينصرف بعجلة، ليصعد إلى شقته في الدور العلوي. دعاني "عيسى" لتناول القهوة في المطبخ، الذي

يوحي بأنه مستودع نشاطه اليومي ومحط الإلهام، ومعقل الطعام والشراب والقراءة والكتابة. ذكرني بأنني فضولي ونهم في الحصول على المعلومات، بحكم نشاطي الصحفي والأدبي، ولا يريد أن ينتظر مني سؤالاً حتى يشبع فضولي. قال لي بلهجة تقريرية: "من رأيته الآن هو ابني البكر شهاب.. رجل أعمال ناجح... تصدير واستيراد.. له شبكة علاقات محلية وعالمية.. بدأ نشاطه قبل حادث المنصة ١٩٨١.. يواصل نشاطه الآن وسط هوجة الانفتاح، الذي يسمونه عشوائياً.. هو ابن بار لعصر العولمة الذي نعيشه الآن... زوجته ابنة رجل أعمال مصرى، يستثمر أمواله في إيطاليا واليونان، ويحتفظ بأرصدته في سويسرا.. هل يكفيك ذلك أم تريد المزيد؟". كان ذلك هو ظلال وجه آخر من وجوه حياة "عيسي ماهر".

لم تنقطع زياراتي لـ "عيسى" الذي أصبح صديقاً حميماً، لم أعد استغني عن صداقته. يقتلني فضول جامح لمعرفة تفاصيل رحلة حياته عبر مشاريع ثلاثة.. مشروع يوليو.. مشروع أكتوبر.. مشروع الانفتاح. لم أتعجل المعرفة. تنامي الصداقة سيكشف عن كل شيء. كنا نتبادل الحديث عن الشأن الراهن في إحدي زياراتي له، عندما خرج شاب من إحدي غرف "الفيلا"، يبدو عليه الهدوء الزائد وفقدان الحماس واللامبالاه. جلس معنا دون أن يلقي بتحية، ولم ينطق بكلمة واحدة طوال أكثر من ساعتين. بدا شارداً لا مبالياً بما

نتحدث فيه، يدخن بشراهة، يضع ساقاً فوق ساق بطريقة مستفزة، فتح التليفزيون وبدا أنه لا يتابع ما يقدم على الشاشة. ملامح "عيسى" توحي بأنه قد تعود على هذا الوضع وتقبله كأمر واقع. أحضر الشاب صينية كبيرة من المطبخ عليها كمية رهيبة من الطعام. فهمت أنه يتناول إفطاره في الواحدة ظهراً. غادر "الفيللا" دون أن يلقي بتحية. قال عيسى بواقعية ظريفة: "أظنك تريد أن تعرف شيئاً عن هذه الشخصية الفذة". قلت له: "كلي فضول". دعاني لتناول "نسكافيه" في محرابه الأثير، في المطبخ. أخذ يتحدث وهو منشغل بإعداد القهوة: "هذا يا صديقي هو ابني الثاني "رأفت".. يعاني من مشاكل عقلية ونفسية.. عاطل عن العمل.. لا يستمر في أي وظيفة أكثر من شهور.. ليس له أصدقاء.. حياته العقلية معطلة.. لا يدرك ما يجري حوله.. لا ينتظم في تعاطي الدواء... يأكل ويشرب ويدخن وينام أكثر مما يستيقظ.. يمثل لي مشكلة لا يبدو لها حل قريب.. هل يكفيك ذلك أم تريد المزيد؟".

حدثني "عيسى" في زيارة أخري عن ابنته الطبيبة التي تعمل في "السعودية" الآن مع زوجها الطبيب، وقد انشغلت بتربية ولديها وتحقيق دخل مادي كبير. بعد أن فقت طموحها في إنجاز علمي طبي كبير في مصر، وإنشاء مستشفي عالمي يغني المرضي عن العلاج بالخارج.. انكسر طموحها عندما حصلت على بكالوريوس

الطب بدرجة امتياز، وأصبح من حقها أن تكون معيدة بالكلية. وتم تخطيها لصالح ابن رئيس قسم "الباطنية"، وعندما تظلمت ورفعت مظلمتها إلى وزير التعليم، لم تمكن من الحصول على درجة الماجستير التي تؤهلها للحصول على درجة الدكتوراه. لم ينجح "عيسى" بصلاته الواسعة في رفع الظلم عن ابنته، التي لم يغفر لها عميد الكلية التشهير به عند الوزير. قال لي عيسي بحزن وأسى: "كان عميد الكلية يحتل موقعاً هاماً في أمانة الحزب الوطنى".

أصبحت علاقتي بالصديق "عيسي ماهر" مصدر ثراء ثقافي واسع وعميق. كان موسوعة علمية ثقافية منقطعة النظير. حدثني باستفاضة عن رموز العلم والفكر. قديماً وحديثاً. حدثني عن فرويد، داروين، روسو، شكسبير، هيجل، ماركس، أنجلز، لينين ، سارتر، وكثيرون غيرهم. يحفظ تاريخ مصر والعرب عن ظهر قلب. يحلل الأحداث الجارية بمهارة واقتدار، بعقل مرتب وأفكار منظمة، تربط الماضي بالحاضر وتتشوف إلى المستقبل. سألته لماذا لا تكتب ، وتطرح رؤاك وتسهم في تغيير الواقع. قال لي بأسى: "لمن أكتب؟! لأناس تم محو ذاكرتهم.. لمجتمع تم الحجر على تنظيماته المدنية.. لمثقفين فقدوا انتماءاتهم لمشاريع مستقبل.. لمفكرين ومبدعين دخلوا حظيرة المنافع الشخصية؟". لم أوافقه على هذه النظرة المتشائمة. سألته بحيرة واستغراب: "لماذا إذن تواصل

تحصيل المعرفة بهذا الشكل الجنوني؟". قال لي وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح:"كان عندي حلم كبير.. وعيت أن حلمي لن يتحقق إلا بسلاح المعرفة. سقط حلمي عام ١٩٥٤ في ظرف سياسي عصيب.. كنت قد أدمنت المعرفة.. تحولت المعرفة إلى مرض.. أصبحت أعاني من هذا المرض حتى اليوم.. أمامك الآن حالم مكسور أدمن المعرفة لوجه المعرفة.. أصبحت بديل إدمان الخمور أو المخدرات أو البرشام. سألته بإلحاح جنوني أن يحدثني عن محنته في عام ١٩٥٤. أبدي رفضه القاطع لاستعادة ذكري المحنة التي غيرت مسار حياته.

دفعني فضول جارف لمعرفة أبعاد المحنة التي تعرض لها "عيسي ماهر". لجأت إلى أخي الذي كان زميله في كلية الآداب "قسم فلسفة"، وشريك المغامرات النسائية، وصديق عمره، أخي الذي كان يقرضه ليحصل على قوت يومه ويشتري كتب ومذكرات الكلية. استمعت إلى أخي ساعات طوال، ومرة بعد مرة، حتى وضحت لي تفاصيل الماضي الغائب عني في حياة "عيسي ماهر".

علمت من أخي أن "عيسى" من مواليد قرية قريبة من "دمياط"، وكان أصغر إخوته، وتربي في أحضان جدته، بعد أن طلقت أمه، وتزوج أبوه من فتاه صغيرة، أنجب منها ثلاثة أبناء. كان أبوه شيخاً أصولياً شديد القسوة، يملك سبعين فداناً آلت كلها؟ بعد

وفاتـه؟ إلـى أبنـاء زوجتـه الصـغيرة اللعـوب فاتنـة الجمـال. حصـل "عيسى" على الثانوية العامة من دمياط، ولـم يطق الحياة مع أسرته التـي ضـاقت بـه، ونفـرت مـن طباعـه العدوانيـة الخشـنة. هـرب إلـى الإسكندرية، عمـل موظفاً بمكتبـة "كليـة الآداب، التهم معظم كتب المكتبـة، وأصـبح اسـمه الرمـزي "دودة كتـب". قـرر أن يسـتكمل تعليمه، فانتسب إلى "قسم الفلسفة"، ونجح في السنة الثانية بدرجة "امتيـاز"، وأشرف على مجلة "الحائط" بالكليـة، في عامه الدراسي الثالث، في عام ١٩٥٤، وبرغم تحمسه لأفكار الثورة، لم يتوقف؟ فـي مقالاتـه بالمجلـة؟ عـن انتقـاد اسـتيلاء العسـكر علـى السـلطة وتجميد الديمقراطية وعدم تسليم السلطة للشعب، مما وشي بتعاطفه مـع "محمـد نجيـب" فـي أزمـة مـارس ١٩٥٤"، وأخـذ يتـزعم المظاهرات، ويرفع فوق أعناق زملائه.

تم القبض عليه، فصل من الكلية، أودع في السجن، تعرض لكل صنوف وأشكال التعذيب، تولدت بينه وبين مدير السجن مودة كبيرة تحولت إلى صداقة ومناقشات ثقافية حذرة لا تصل إلى درجة الاحتجاج. وبفضل هذه الصداقة تم الإفراج عن "عيسى" ولـم تنقطع الصداقة". تعلـم "عيسى" الدرس، فقرر تطليق الديمقراطية إلى غير رجعة. انقطعت علاقته بأبيه، ثـم انقطعت علاقته بالديمقراطيـة، في حين توثقت صلاته بأجهزة الأمن. طلب منه صديقه؟ ضابط الأمن

الكبير؟ أن يذهب إلى ضابط أمن الكلية، ويطلب منه مواصلة الدراسة. استقبله الضابط ببشاشة وترحاب، أعاده للدراسة في نفس جلسة أول لقاء. هكذا استوعب "عيسى" الدرس ووضعه حلقة في أذنه.

حصل "عيسى" على الليسانس. تعرف على زوجته في مكتب أحد أصدقائه الجدد. رمقته عفاف بنظرات غير بريئة. اصطحبها وهو ينصرف بمباركة من المستضيف. تحول التعارف إلى مرافقة وعشق. توسطت له عفاف ليعمل في فرع شركة "فورد" الأمريكية. حصل على عقد العمل بمنتهي السهولة. كسب ثقة مدير الفرع بسرعة مذهلة. حصل على مرتب لم يخطر بباله. هكذا جمع بين ثقة "فورد" وثقة "جهاز الأمن". حاز على الثقة من الطرفين وبرضا الطرفين. ساعدته ثقافته على تقديم النصائح والتوصيات ببراعة مدهشة وبدخل مضاعف. تم زواجه من "عفاف" الجميلة والواصلة في نفس الوقت. كان طبيعيا أن يكافأ على خدماته. هكذا تم تمكنيه من "الفيللا" التي طرد صاحبها من البلاد للاشتباه في أمره. أصبح شخصية مطلوبة لا يمكن الاستغناء عنها. استوعب حرفية المهام الموكولة إليه. فرضت الظروف أن ينتقل من موقع لآخر، انتقل من "فورد" إلى فرع شركة "فيليبس"، إلى الشركة المصرية الأمريكية للتنمية الزراعية. هكذا تعلم أن يعمل لحساب نفسه بالتوافق مع حسابات الآخرين.

حقق ثروة طائلة مثلما حقق الشعور بالأمان المطلق، بعد سنين طويلة من النبذ والعقاب.

تغيرت الأحوال. لم يعد الوكيل المطلوب لكل الأطراف. تم الاستغناء عن خدماته. كان قد حقق الاكتفاء الذاتى، ولم يعد في حاجة إلى أحد. وتغيرت الأحوال مرة أخرى. مرضت زوجته بسرطان النخاع. أرسلها إلى أمريكا للعلاج. تكلف علاجها ثلاثين ألف دولار، لم تفلح في إبقائها على قيد الحياة. اعتزل العمل، وماتت عفاف، وعاش وحيداً بين طيات الكتب. نقل تجربة عمره إلى ابنه "شهاب". الثراء ومهادنة السلطة ولا شيء غير ذلك. قال لي ذات لقاء: "فلتذهب الحرية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان إلى الجحيم". نقل الدرس؟ درسه الخاص؟ إلى "شهاب"، عند ظهور بوادر الانفتاح بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣. أصبح شهاب من نمور الانفتاح في مجال الاستيراد والتصدير، بعيداً عن الكتب والمظاهرات ومخاطر الاحتجاج.

وبدأت رحلة الأمراض. عضلة القلب تفقد لياقتها. الكبد يتعجل التليف. العضلات تتراخى. العظام تتآكل. اليقظة العقلية يتخلي عنها جسد يتهاوي بسرعة. فسألته في إحدي زياراتي التي أصبحت قليلة: "هل أنت راض عن حصاد الرحلة؟". التقط أنفاسه بصعوبة وهو يمد يده إلى أدراج صندوق الدواء، وقال بحكمة

العاجز: "لم اختر أبي الأناني الذي يمتهن وظيفة الوعظ والإرشاد .. لم أنجب ثورة يوليو.. لست مسئولاً عن نكسة ١٩٦٧.. لم أشارك في حادث المنصة ١٩٨١ .. لم يأخذ أحد رأيي في الانفتاح العشوائى.. لم استشر في فلسفة العزلة باسم الوطنية.. تكفلت الأمراض بعجز بصري عن إدمان القراءة.. لم يعد هناك ما أدمنه.. كان على أن أواصل الحياة، لأنني لا أملك شجاعة الانتحار.. سرق مني الاحتجاج.. الرضا شعور مستحيل يثير الضحك.

انقطعت صلتي بـ "عيسى" سنوات طويلة. كان قد اختار العزلة، وعزف عن لقاء الأصدقاء بعد تدهور صحته. ذكرتني به أحداث كثيرة جارية، فقررت زيارته على سبيل السلوي والعزاء، ذهبت إلى مسكنه فلم أجد أثراً للفيللا العريقة العتيقة. وجدت مكانها أثاثات لمؤسسة سكنية في طريقها للصعود، أثاثات توحي بمنشأة معمارية بالغة الضخامة. توجهت لزيارة أخي قبل أن أعود إلى بيتى. سألته قبل أن أقرئه السلام عن أخبار "عيسى". هدأ من قلقي وقال لي بحزن بالغ: "نقله ابنه شهاب إلى دار للمسنين، ليستفيد من مساحة "الفيللا"، ليبني مكانها خمس عمارات تدر المليارات". قلت بغضب: "ليس هذا من حقه، مازال أبوه على قيد الحياة". قال لي بمزيد الأسى: "حصل شهاب من أبيه على توكيل رسمي عام، تكفل بموجبه بهدم الماضي لصالح المستقبل".

قلت بغيظ: "شهاب ليس في حاجة لمزيد من المال".

قال بواقعية باردة: "المال خلية سرطانية.. تتمدد بحكم طبيعتها... تتمدد لأنها يجب أن تتمدد". عدت أقول: "كان من الممكن أن يشتري لأبيه "فيللا" في المعمورة.. من حر مال أبيه" قال أخى: "رفض أبوه أن يفرط في ذرة تراب واحدة، عالقة في جدران مسكنه".

١٧- وجدى فرج

لم تربطني به صلة زمالة أو صداقة، رغم أنه آخر عنقود الأستاذ "مرقص فرج"، الذي يسكن في الشقة المواجهة لشقتنا في حي "محرم بك". كنت صديقاً لأخيه الأكبر "ألبير"، زميلي في مدرسة "محرم بك الابتدائية"، ورفيق مباريات الكرة "الشراب" في شارع "الكنوز" . كان وجدى، الذي يصغرني بخمسة عشر عاماً، يجلس على رصيف الشارع، ليشاهد المباراة، ويكتفي بالتصفيق والتهليل. كان يجلس على حافة مجالسنا؟ أيام التلمذة المبكرة، لا يشاركنا الحديث، ولا يذهب معنا إلى السينما، ولا يعاكس فتيات الجيران. لم أكن أراه إلا عندما ألتقي بأخيه، ولم يلفت نظري لمحادثته أو مشاغبته. صبي منطو وصامت ويكتفي بمراقبة الكبار.

لم أعد أراه بعد أن التحقت بالكلية الحربية، وتخرجت منها لأمارس الخدمة العسكرية، ما بين العريش ورفح وفايد والقاهرة، وهكذا أصبحت ضيفاً على الإسكندرية، ولم تعد تربطني أي صلة بـ "وجدي فرج" أو إخوته. ودارت الأيام، حتى شاركت في حرب أكتوبر **١٩٧٣**، وطلبت من قائدي أن أخدم بالإسكندرية، حتى أفوز بهدنة بعد أربعة حروب، وأنعم بصحبة زوجتي وأولادى. وهكذا أصبحت قائداً لقطاع "العامرية" العسكرى، وذقت حلاوة أن أعود إلى بيتي كل يوم، وأبيت فيه. فوجئت ذات يوم بأن هناك على باب مكتبي من يطلب لقائى. أمرت بدخوله، فوجدت أمامي شاباً يافعاً، لا يتجاوز عمره خمسة وعشرين عاماً. سألني هل أذكره. لم أكن أذكره فآثرت الصمت. قال لي بثقة بالغة واعتزاز: "أنا وجدي فرج". اشتعلت الذاكرة. قلت له بدهشة وذهول: "ابن الأستاذ مرقص فرج؟ جاري في عمارة "محرم بك" التي يملكها أبوك؟ الصبي الذي كان يتفرج علينا ونحن نلعب الكرة "الشراب"؟". قال بجرأة لم أتوقعها، وأنا في رتبتي هذه: "الصبي الذي كان يلاحظك وأنت تشتري البطاطا والعسلية". أعجبتني جرأته. كنت قد امتلكت الحس الفني للكتابة القصصية. دعوته للجلوس. قلت له إنني قرأت كل مسرحيات أخيه الأكبر "لويس فرج" ، أحد كبار كتاب المسرح الآن. قال لي بفخر واعتزاز: "هو أبي الروحى.. قرأت كل مسرحية له ثلاث مرات على الأقل.. حفظتها عن ظهر قلب". طلبت منه أن

يحكي لي حكايته. علمت أنه خريج معهد الفنون المسرحية (قسم نقد) وهو الآن مجند، يقضي الخدمة العسكرية الإلزامية في الاسماعيلية، ويواصل قراءاته النقدية، حيث نصحه أخوه بقراءة مائتي كتاب على الأقل قبل أن يكتب كلمة نقدية واحدة". شعرت أنه زارني ليطلب شيئاً. قلت له ماذا تريد؟ قال: "أريد أن أخدم معك هنا بالإسكندرية". توسطت له بالفعل. لم يمر شهر حتى كان يعمل معي في قيادة القطاع. أصبحت أقضي معه ساعات طويلة في حديث متصل حول الكتابة الأدبية في مجال القصة والرواية والمسرحية. بهرتني معلوماته الغزيرة وتفكيره المنظم وثقته المفرطة في نفسه. طلب مني بعض نماذج من قصصي، ليتعرف على أسلوبي في الكتابة. قدمت له مجموعة من قصصي. مر يومان عندما طلب مني أن أقابله في كازينو "الشاطبي". التقيت به وأنا شغوف بمعرفة رأيه. جلس أمامي وقد اتخذ وضع المدرس، وقبلت عن طيب خاطر أن أتخذ وضع التلميذ. أخذ يتحدث طوال الجلسة، وأنا مبهور بحاسته النقدية.

تواصلت الجلسات، وأنا مبهور بثقافته المنهجية المنظمة، إلى أن كانت الجلسة التي غيرت اتجاهي في الكتابة. طلب مني أن أسمعه دون مقاطعة. بدأ يحدثني كأنه يلقي محاضرة: "كتابتك القصصية تكشف عن موهبة حقيقية. لا تنقصها الخبرة والدراسة..

الفن القصصي وحده لا يصنع كاتباً كبيراً... القصة هي المقدمة الطبيعية للكتابة المسرحية.. "أنطون تشيكوف" و"يوسف إدريس" وغيرهم بدأوا بالقصة وانتهوا بكتابة المسرحية.. جرب أن تكتب للمسرح ولن تندم على ذلك.. سأقدم لك الكتب المطلوبة وخبرتي في هذا المجال". وبدأت أجرب بالفعل. قدم لي ما يربو على مائة كتاب. أخذت أقرأ وأجرب وأكتب. حازت مسرحياتي القبول. نشرت في أكثر من مجلة أدبية ومسرحية، مصرية وعربية. تحول بعضها إلى عروض مسرحية. قبلت النصيحة وحققت نجاحاً مقبولاً.

أنهي "وجدي فرج" خدمته الإلزامية بالجيش. عمل في وظيفة إدارية بهيئة الفنون المسرحية. قبل الوظيفة لسد الحاجة وطلب العيش، وسعي لتحقيق حلم "الناقد المسرحي الكبير". لم تحظ مقالاته النقدية بالاستجابة والقبول. كان قد غفل عن التحولات السياسية والثقافية التي غيرت الواقع. كان قد ورث عن أخيه الأكبر الانتماء إلى مدرسة "المسرح الاشتراكي"، ولم يقبل لها بديلاً. كان الواقع قد أزاح الحلم الاشتراكي واتجه نحو الانفتاح والاقتصاد الحر والمنافسات الفردية. هكذا اصطدمت مقالاته بأبواب مسدودة، وبدأ يتراجع حلم "الناقد الكبير"، وعاش "وجدي" غريباً عما يجري حوله، يعاني من حالة "فصام" لم تستجب للمتغيرات. تعلمت منه الكثير، واستجبت للمتغيرات، وهو امتلك أسرار حرفته الفنية، ولم يستجب

للمتغيرات. تراجع حلمه، ولم يبق له سوى المحافظة على البقاء ومواصلة الحياة.

زارني مرة في بيتي. شكا لي من ضيق الحال. مرتبه لا يكفيه عشرة أيام في الشهر. وصف لي الناشرون وأصحاب المجلات بأنهم متخلفون عقلياً، ولا يقدرون مقالاته حق قدرها. طلب مني ثمن الكتب التي أهداها لي منذ سنوات. قدمت له ثلاثة أضعاف ثمنها كمعونة مستترة. لم أتخل لحظة عن معاملتي له كمدرس وأستاذ وصاحب فضل لا ينسى، رغم فارق السن. لم أعد ألتقيه بانتظام. أدركت أنه يناضل من أجل لقمة العيش، ولم يعد يتابع بحمية وحماس ما ينشر وما يعرض من مسرحيات. وانقطعت صلتي به فترة طويلة.

كنت في القاهرة لقضاء بعض المهام. انتهيت من المشاركة في ندوة في "اتحاد الكتاب"، وقررت الذهاب إلى مؤتمر في "دار الأوبرا" على وجه السرعة. أشرت إلى "تاكسي" وركبت فيه. فوجئت بأن الذي يقوده هو "وجدي فرج". تبادلنا السلامات والتحيات. علمت أنه يضاعف دخله المتواضع بالعمل كسائق "تاكسي". قال لي بلهجة ساخرة: "هجرت الاشتراكية، وقررت المشاركة في الانفتاح.. أنا مشغول الآن بتدبير الشبكة والمهر... قبلت خطيبتي أن نتزوج في بيت أبيها، حتى يمكن تدبير شقة بعد عمل طويل". مضت

سنوات قبل أن ألتقي بصديقي القديم "ألبير فرج" (أخو وجدي). بدا حزيناً مكسورا وهو يقول لي بأسي بالغ: "مات وجدي في حادث مروع، عندما تصادم التاكسي الذي يقوده بلوري ضخم يحمل حديد تسليح" قال لي ألبير بغم ثقيل: "لم يحظ بمكاسب الاشتراكية، وسقط ضحية الانفتاح.

بطاقة توثيق

- الكاتب محمد الجمل.

- من مواليد عام ١٩٣٥.

- حاصل على ليسانس الآداب .. وبكالوريوس العلوم العسكرية.

- عميد سابق بالقوات المسلحة.

- عضو اتحاد الكتاب وعضو نادى القصة .. إضافة إلى العديد من الجمعيات والهيئات الثقافية بالقاهرة والإسكندرية.

- صدر له العديد من المجموعات القصصية والأعمال الروائية .. إضافة إلى إسهامه فى مجال الكتابة الدراما التلفزيونية.

- أبرز مجموعاته القصصة : قبل رحيل القطار – هناك خطأ ما – داخل الكابينة – كوكتيل – كعب الخير – جوع القلب.

- من أبرز رواياته : المسافة الصغيرة – من كفر الأكرام إلى بارليف – القصور تتصدع فوق الرمال – جواز المرور – حدث ذات المساء – أمازيس – غيبون بدون جنون – أطياف مسافر فى الغروب.